مكسيم جوركي

خطيئة الطاهية

مختارات قصصية

ترجمة

محمد خليل

تقديم ومراجعة

د. محمد فخري

الكتاب: خطيئة الطاهية (مختارات قصصية)

الكاتب: مكسيم جوركي

ترجمة: محمد خليل

تقديم ومراجعة: د. محمد فخري

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

جوركي، مكسيم

خطيئة الطاهية / مكسيم جوركي، ترجمة/ محمد خليل، تقديم ومراجعة/ د. محمد فخري

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢١٣ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٥ – ٤٧٢ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٥٧٨١ / ٢٠٢٢

خطيئة الطاهية

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تقديم

يظل رائد الواقعية الاشتراكية مكسيم جوركي، على الرغم من السنوات الطويلة على رحيله واحداً من أكثر الكتاب في العالم تأثيراً لما عرف به من فرادة أسلوبية ونمط سردي رصين يتمثل ببراعة وصفه ودقة تصويره وغوصه في الظواهر الاجتماعية المحيطة بعمق ورشاقة أعماله المكتوبة بحرقة إنسانية تلج القلب بسلاسة جعلته حاضراً بحضور موضوعات قصصه التي عالجت واقعها المر للمصادفة – جوركي بالروسية تعني أيضاً "المر".

ويعلم القارىء مدى العذاب الرهيب الذي كابده مكسيم جوركي والمحتبس في ذاته منذ طفولته بفعل التسلط والصراع الطبقي في مجتمعه الذي لم يترك سليمًا به سوى رغبته في العطاء الإبداعي. لم تكن طفولته مدلـلّه، كما لم يكن مسلكه بطوليًا ولا سهلاً. خاض تحديات خطرة لكنه ربحها، ورغبته في الانتحار في عمر التاسعة عشرة في بداية مشواره الإبداعي تخبرنا مدى اندفاعه لحالة اليأس والخيبة، لكن وسط كل هذه الخيبات ساعده إيمانه بالتغلب على النحس الذي رافقه في صباه.

فأعماله الأولى التي اعتبرها بعض النقاد معيبة حظيت فيما بعد بالإعجاب، وأصبح من رواد الأدب العالمي بامتياز، إذ لاقى في الوسط الثقافي العربي كثيرًا من المؤمنين بقلمه من المثقفين العرب في الأربعينيات

والخمسينيات من القرن العشرين، والذي اعتبره كثيرون رمزًا لنضال الطبقات الفقيرة. كما في رواية "الأم" ومسرحية "الحضيض" وهي أكثر مسرحياته شهرة وقد أتم تأليفها في العام ١٩٠٢ وقد ترجمت إلى معظم اللغات الحية في العالم، ومنذ ذلك الحين تناولها المخرجون وقدموها مئات المرات على أهم خشبات مسارح العالم، ومثلت في برلين وحدها أكثر من مئة وثمانين مرة، وهي قصة تدور وسط المتشردين البائسين الذين داستهم الحياة بقسوة، وتطرح نماذج مختلفة من البشر، يمثلون شرائح مختلفة في روسيا القيصرية.

اسم مستعار

بداية فاسمه "مكسيم جوركي" هو اسم مستعار أو هو الإسم الأدبي الذي اتخذه لنفسه "الكسي مكسيموفتش بيشكوف"، وقد أخفى اسمه الحقيقي ليهرب من البوليس القيصري الذي كان يطارده لنشاطه الثوري، فاختار اسما دالا على حياته، فمكسيم تعني "المر" بالروسية للدلالة على ما في حياته من قسوة مرة، أما جوركي فهي تعني التلال، بدلالتها على الارتفاع عن سطح الأرض.

وقد ولد الكسي في الثامن من شهر مارس عام ١٨٦٨، في "نيجني نوفجورود"، التي تتبع مدينة استراخان، وكان الأب قد انتقل اليها بتكليف من صاحب شركة الملاحة التي كان يعمل بها، وهناك أشرف على بناء قوس النصر الذي أقامته المدينة ترحيبا بزيارة الامبراطور الكسندر الثاني

لها. وهناك ولد الكسي، ومنذ ولادته وهو يعيش حياة قاسية، فوالده النجار مكسيم بيشكوف تزوج من "فارفارا كاشيرينا" على غير رغبة والدها فطردها، ولم تعد لبيته إلا بعد وفاة زوجها، بسبب الكوليرا، وكان عمر ابنهما الكسي أربعة أعوام فقط، وسرعان ما لحق شقيقه بالأب، وهو المشهد الذي لم ينسه أبدا مكسيم جوركي، ويصفه في كتابه "طفولتي" مشهد الطفل الصغير الراقد في تابوت في السفينة التي نقلتهم إلى المدينة. وكيف أن أمه بقيت تنظر إلى ابنها البكر الكسي بنفور، وكأنه السبب في موت والده وشقيقه.

وبعد شهور من الإقامة في بيت جده تركته أمه لتتزوج من رجل ثان، فاضطر جده إلى قبوله في بيته، وتولت تربيته الجدة "أكولينا ايفانوفنا" التي لعبت دورا كبيرا في تنشئة الطفل الكسي الذي بلغ عامه السابع. لكن ساءت أحوال الجد المالية فأرسل الصبي في البداية للعمل في أحد محلات بيع الاحذية، حتى عادت إلى بيت أبيها بعد انفصالها عن زوجها، ورجعت مريضة هزيلة، ثم توفيت أمه بعد ست سنوات من وفاة أبيه، وبعدها أودعه لدى أسرة من اقرباء الجدة ليعمل خادما لكنه هرب منهم بعد فترة قصيرة.

وقد تركت وفاة أبويه في نفسه جرحا لم يندمل فبدأ كتابه "طفولتي" بمشهد موت الأب، وانتهى الكتاب بموت الأم ثم طرد جده له من البيت ليخرج إلى العالم، فلاقى أهوالا دفعته إلى محاولة الانتحار ليتخلص من حياته، فأطلق النار على نفسه، لكن الرصاصة اخترقت الرئة، وأخطأت

القلب. ولم يكن يومها قد وصل إلى التاسعة عشرة، وكانت محاولة الانتحار بعد فشله في الالتحاق بجامعة قازان.

ومنذ ذلك الحين بدأ صراع الكسي من أجل العيش، فتغيرت المهن التي عمل بها، وكان من أصعبها العمل في مخبز حيث كان يحمل منذ الفجر أكياس الطحين الثقيلة ويعد العجين ثم يوقد الفرن وبعد ذلك يحمل الخبز والمعجنات إلى السوق.

وكان جده في البداية يرغمه على حفظ المزامير وأداء الصلوات والذهاب الى الكنيسة. وعن ذلك كتب جوركي :"لم احب الذهاب إلى الكنيسة مع جدي، فقد كان يرغمني على الانحناء، ويدفعني دائما وبشكل مؤلم في عنقي".

وفيما بعد يئس الجد منه، وتركه وشأنه، لكن الكسي قال فيما بعد أنه فقط كان يحب التطلع إلى الايقونات وسماع التراتيل الحزينة.

وقد تأثر الكسي كثيرا بوفاة إخوته الذين رزقت بهم أمه فارفارا كاشيرينا من الزوج الأول ومن الزوج الثاني، الواحد بعد الآخر فعاش وحيدا.

الجدة المقدسة

يعتقد عدد من النقاد أن الوقائع المذكورة في كتابه "طفولتي" ربما لا تعكس حقيقة حياته في بيت جده، وربما ان الكاتب ترك لخياله العنان

ليقدم عمل أدبيا لا عملا تسجيليا، رغم أن من يعرفونه أكدوا على قسوة الجد المفرطة، وقد ذكر جوركي حوادث كثيرة تعكس قسوة جده لكنه مدين له بحفظه للمزامير ولمقاطع من الكتاب المقدس، فقد أتاح له ذلك أن يتفوق في المدرسة الابتدائية الكنسية التي التحق بها. وقد أضفى جوركي على جدته هالة من القدسية في أعماله الأدبية، وليس هذا الكتاب فقط، بالرغم من أن جده كان يصفها بـ"الساحرة الخبيثة".

فقد كانت بالنسبة له مثال الحنان والدفء، كما كانت مصدرا للحكايات الجميلة، بالرغم من أنها كانت امرأة بسيطة ولا تجيد القراءة والكتابة.

هذا وقد حلت الجدة محل الأم، فصار يحتمي بها من الآخرين، حتى حينما اضطر مرة لمغادرة البيت بأمر من الجد، قالت له مودعة: لا تغضب من الآخرين، إنك تغضب لأتفه الأسباب حتى لا تكون متعجرفا مثل جدك، وأفهم شيئا واحدا، إن الرب رحيم لا يدين البشر، بل إن إبليس وحده من يفعل ذلك، وهكذا تعلم الكسي منها التوجه الى العذراء فهي أم الدنيا، ومعنى ذلك أمه، ولهذا كان يقبل أيقونة العذراء من موضع الشفتين، مما أثار استهجان الآخرين في عائلة فاسيلييف التي بدأ العمل في محلها التجاري في قازان. وقد روى كل ذلك في كتابه طفولتي.

ميلادان

قال جوركي: إنني ولدت جسديا في نيجني نوفجورود، بينما ولدت روحيا في قازان. وكانت فكرة الجد في ان يذهب الحفيد للعيش "بين الناس" مثله حينما بدأ حياته العملية حينما كان يجر السفن على ضفاف نهر الفولجا، ثم اصبح "انسانا" عندما تم ترقيته الى رئيس عمال هيئة الملاحة النهرية ورئيس الدوما المحلي. وفي الواقع كون جوركي عقيدته في الحياة في قازان، خصوصا حين عمل في مخبز كان صاحبه يوجه أرباحه لتطوير التعليم والحركة الشعبية في المدينة. وكتب جوركي عن حياته في قازان يقول : "في سن الخامسة عشرة عاما تملكتني رغبة عارمة في أن أتعلم، لذلك سافرت إلى قازان لاعتقادي بأن العلم يقدم الى الراغبين مجانا، ولكن تبين أن اعتقادي غير صحيح. فالتحقت بمخبز لصنع المعجنات مقابل روبلين في الشهر. وكان العمل هناك من أشق الأعمال التي مارستها في حياتي".

ومن المعروف أن جوركي لم يكمل الدراسة حتى في المدرسة الابتدائية الكنسية، واجتاز فقط صفين من التعليم في مدرسة بضواحي نيجني نوفجورود. ولكنه اضطر لترك المدرسة بعد إصابته بالحصبة.

وعموما كانت الفترة التي قضاها جوركي في قازان من أصعب فترات حياته الملأى بالمصاعب، فهناك قام بمحاولة الانتحار وعمره تسعة عشر عاما، بأن حصل على مسدس ثم توجه الى تل قريب من الدير وأطلق النار

على نفسه. يقول إن أهل المدينة هم من أنقذوه وليسوا رهبان الدير، وبقي الكسي في المستشفى لفترة حتى تم علاجه، لكن واجهته محنة أخرى حيث سلّمه الشرطي أمر الكنيسة بتحريمه لارتكابه خطيئة الانتحار. وطالبه الشرطي بالتوجه إلى الكنيسة لإعلان التوبة وطلب المغفرة، لكنه رفض.

ويقول جوركي إن الفترة التي قضاها هناك كانت فرصة للاطلاع على مخلوقات كانت بشرا، والتعرف على حياة الأقبية حيث يعيش المشردون، وكذلك التحدث مع الطلاب الذين كان يبيع الكعك لهم. وهناك تعلم جوركي الكثير في لقاء شخصيات أخرى يشبهون ديرينكوف صاحب المخبز، إذ انتقل للعمل في ورشة لرسم الأيقونات، ثم في غسيل الأطباق في السفينة "دوبري". وكان طباخ السفينة وهو ضابط صف مقاعد يحتفظ في السفينة بصندوق فيه بعض الكتب. وكان يدعوه الى مقصورته ويعطيه احد الكتب ويقول: اقرأ.. واذا لا تفهم فعاود القراءة اكثر من مرة، وحتى سبع مرات! وإذا لم تفهمه في المرة السابعة فأقراه اثنتي عشر مرة وهكذا اعتاد القراءة التي لم تكن من عاداته، فصار يشتري الكتب بنفسه عندما تتوقف السفينة في الموانىء المختلفة.

وقد منحته الكتب إجابات عن الاسئلة التي كانت تثير حيرته أو قلقه، فواصل القراءة عندما ترك السفينة ليعمل في صيد الأسماك ثم عمل بستانيا، وبعدها عمل حارسا في محطة القطار وغير ذلك مما مارس من مهن، كان همه الأول أن يحصل على كتاب سواء بأن يستعيره من أحد

معارفه أو يشتريه، أوحتى يقوم بسرقته. وقد أحب أولا الروايات المسلية وكتب المغامرات، وهو الأمر الذي أثر عميقا على أسلوبه األدبي الذي يعتمد على الإثارة العاطفية وهو ما عابه عليه النقاد فيما بعد.

بعد قازان سافر الى مدينة كراسنوفيدوف،حيث تنقل كالعادة بين أعمال كثيرة، إلى أن انضم إلى جماعات تولستوي التي انتشرت في انحاء روسيا، حيث يقوم الشباب بالعمل في المزارع بعيدا عن المدن. وقد جذبت هذه ال جماعات وقتها العديد من الكتاب منهم تشيخوف وبونين وليونيد اندرييف وغيرهم.

ولم تطل فترة بقائه في المزرعة إذ تم استدعاؤه للخدمة العسكرية في مدينته الأصلية نيجني نوفجورود، لكن اللجنة الطبية رأت أنه يفتقد إلى اللياقة البدنية فأعفي من الخدمة، لعدم لياقته الصحية.

بعدها عاود التجوال في أنحاء روسيا مرة اخرى. ومارس شتى المهن في الموانى وغيرها. لكن وجوده في مكتب لانين أتاح له الاطلاع على كتب غيرت تفكيره. فهناك قرأ كتاب نيتشه "هكذا قال زرداشت" يرى فيه أن الإنسان مثل "الجسر" الذي أقامته الطبيعة بين الحيوان الإنسان الأعلى. وبقيت تلك الفكرة راسخة عنده وانعكست في اعماله الادبية ومنها مسرحيته "الحضيض" حيث يقول على لسان ساتين: "الإنسان هو الحقيقة.. فما اعجب الإنسان".

النهاية

في بداية يونيو ١٩٣٦ أعلنت الحكومة السوفيتية تردي صحة جوركي، وقد وصفت التقارير اليومية التي كانت تصدر عن حالته الصحية بأنها متناقضة وحافلة بالثغرات والكذب من أجل تهيئة الرأي العام لقبول نبأ الوفاة الطبيعية للكاتب الشهير، التي أعلنت في ١٨ يونيو ١٩٣٦ وطوال سبعين عاما ظلت وفاة جوركي محل شك، وطالت الاتهامات بقتله ستالين شخصيا، ويدلل أصحاب هذا القول بما كتبه رجل الأمن المسؤول عن حماية قصر جوركي في مذكراته أن الكثير من الأطباء أبدوا استعدادهم لمعالجة جوركي ولكن طلباتهم رفضت. وأن الحقنة التي أرسلها القنصل الروسي في باريس، وزعم أنه اكتشاف جديد سيؤدي إلى الشفاء أدت إلى تفاقم الحالة وموت الكاتب الكبير.

رجل ضائع

وأخيرا فإن ما يمنح غوركي طابعه المميز عن الأدباء الآخرين أنه يصور العمال الكادحين بمظهر القوي الذي تحتاجه الدولة كذراع يحركها لا العكس كما يحاول الكتاب الآخرون إثارة الشفقة والرحمة عليهم.

وقد صور الكاتب قصة حياته في ثلاثيته "سيرة حياتي: طفولتي – مع الناس – جامعاتي" وتحدث خلالها غوركي عن مراحل حياته المختلفة، وفيها تصوير لكيفية تكوين الإنسان لنفسه وتحويل ذاته إلى شخصية عظيمة، بعد أن يتغلب على الظروف، ورغم براعته في تصوير نمط حياته

وما عاناه ومرّ به بدقة إلا أن كثير من النقاد يرونه يخفي تفاصيل كبيرة من حياته ولم تظهر في مؤلفه. كما أن تفاصيلا أخرى تسربت إلى ثنايا قصصه ورواياته دون أن يصرح بأنها سيرة ذاتية، كما نلمح في أطول قصص هذه المجموعة المختارة "رجل ضائع".

وعنوان المجموعة ليس عنوانا لمجموعة قصصية أصدرها مكسيم جوركي، بل هو عنوان لإحدى القصص السبع المختارة، وكان جوركى المشهور بأعماله الروائية الخالدة ومن أشهرها "الأم" قد أصدر عدة مجلدات تضمنت قصصه القصيرة، منها مجموعته "قصص عن الأبطال"، ثم «أقاصيص» والتي تضم اثنا عشر قصة هي: ماكار تشودرا – رفيقي في الطريق – الجد ارخيب وليونكا – العجوز ايزرجيل – تشيلكاش – ذات مرة في الخريف – أنشودة العقاب – كونفالوف – مالفا – ستة وعشرون رجلاً وفتاة واحدة – في أميركا مدينة الشيطان الأصفر – أنشودة نذير العاصفة، وبعدها "أقاصيص من أنحاء روسيا" وتشمل: مولد إنسان – انزلاق الجليد – الأحزان الغليظة – الحب الأول، ومنها أيضا مجموعته «حكايات عن إيطاليا» وتضم خمس قصص هي: "الإضراب – أطفال بارما – النفق – الأم – نونشيا – بيب"..

والقصص السبعة التي تضمها هذه المجموعة مستلة من ثنايا تلك المجموعات، وقام المترجم بنقلها عن ترجمة غاية في الدقة إلى الفرنسية، وهي اللغة التي عرفنا من خلالها كقراء عرب أغلب النماذج الشهيرة للأدب

الروسي، قبل أن يتاح لنا ترجمات عن الأصل الروسي مباشرة دون المرور على لغة وسيطة.

د. محمد فخري

ذات العينين الزرقاوين

كان معاون البوليس "بودشيبلو" الأوكراني البدين، كئيب الطلعة، في مكتبه، يفتل شاربيه، ويرسل إلى فناء مركز البوليس، خلال النافذة، نظرات مفعمة غيظا وحنقا.. فقد كان المكتب معتما رطبا، يخيم عليه سكون شامل لا تعكره سوى تكتكة بندول الساعة وهو يتحرك محصيا الدقائق، في تمهل ممل يثير السأم والضجر في النفس. أما في الخارج، فإن الجو كان مشرقا، يملأ القلب بهجة وسرورا. وكانت شجرات "البتولا" الثلاث القائمة في وسط الفناء، تبسط ظلها وارفا، وقد نام الشرطي "كوخارين" الذي كان قد انتهى من نوبته توا تحت هذا الظل، على كومة من "الدريس" المعد لخيول مركبة اطفاء الحريق.

وهو المنظر الذي أثار غضب "بودشيبلو" فكيف يستطيع مرؤوسه أن ينام، في حين يضطر هو– الرئيس التعس– إلى ملازمة هذا الجحر، وإلى استنشاق الأبخرة الكريهة التي تتصاعد من الجدران الحجرية.. وأخذ يتخيل المتعة التي كان حريا أن ينعم بها، لو أنه نام على هذا "الدريس" الطري في ظل شجرات "البتولا"، لكن وقته ومركزه ما كانا يسمحان بذلك!.. وجعلته هذه الفكرة يتمطى ويتثاءب ويزداد غيظا، ثم تملكته رغبة ملحة في أن يوقظ "كوخارين"، فصرخ بصوت مدو: "أنت أيها الخنزير كوخارين". وفتح باب الحجرة وراءه، ودلف شخص إلى المكتب. ولكن "بودشيبلو" لم

يحفل به، وظل يتطلع عبر النافذة دون أن يساوره شيء من الفضول لمعرفة الشخص الذي أقبل ووقف عند مدخل الغرفة فجعل خشب الأرضية يئن من ثقله وفي الوقت ذاته، لم يستجيب "كوخارين" لصراخ "بودشيبلو". إذ كان مستغرقا في النوم، واضعا يديه تحت رأسه، وخيل إلى معاون البوليس أنه يسمع غطيط مرؤوسه يرتفع عاليا في تحد وسخرية ضاعفا من شوقه إلى النعاس، وزدادا من حنقه لأنه لم يكن يملك أن يغفو قليلا. وشعر برغبة في أن يهبط إلى الفناء فيوجه ركلة قوية إلى كرش "كوخارين"، ويجره من لحيته من الظل إلى أشعة الشمس الحامية.

وعاد يصيح: "أنت يا من تنام هناك.. أتسمعني؟" ورد عليه صوت رقيق انبعث من خلفه قائلا: "أنا الموكل بالنوبة يا صاحب الفخامة". فالتفت "بودشيبلو" محملقا في الشرطي الذي كان يتطلع إليه بعينين جاحظتين، باهتتين، مرتقبا الأوامر التي قد تدفع به إلى الخارج مسرعا. وما لبث بودشيبلو أن سأله: "هل أستدعيتك"

– كلا يا سيدي

فرفع بودشيبلو صوته، وهو يستدير في مقعده: "وهل تراني سألت عنك؟".. فأجاب الشرطي: "لا يا سيدي"

– أذن، فاذهب إلى الجحيم قبل أن أرمي رأسك بشيء يحطمه.

وراحت يسراه تتحسس بالفعل شيئا على المكتب، بينما تشبثت يمناه بظهر مقعده.. ألا أن الشرطي كان قد اندفع كالسهم إلى خارج

الغرفة، وما لبث أن اختفى من أمامه.. ولم يرق لمعاون البوليس أن يخرج الشرطي على هذه الصورة، فضلا عن أنه أراد أن يصب على رأس أي إنسان، ذلك الغضب الذي ضاق به صدره، فصاح في الشرطي: "عد إلى هناك!"

فعاد الشرطي ووقف منتصبا على عتبة الباب، وقد علت وجهه نظرات الرعب والفزع. وزمجر بودشيبلو قائلا: "أيها الغبي، أذهب إلى الفناء وايقظ هذا الحمار كوخارين، وقل له أن فناء المركز ليس معدا للغطيط.. أسرع"

– سمعا وطاعة يا سيدي، ولكن ثمة امرأة تطلب...

– ماذا تقول؟

– امرأة...

– أي طراز من النساء؟

– سيدة طويلة..

– يا لك من غبي.. وماذا تراها تريد؟

– إنها تريد مقابلتك..

– سلها لماذا؟

– لقد سألتها فلم تشأ أن تخبرني، وانما قالت أنها تريد مقابلتك شخصيا.

– لعنة الله على النساء. دعها تصعد لمقابلتي.. أهي شابة؟

– أجل يا سيدي.

وإذ ذاك رقت لهجة بودشيبلو فبدت أكثر خفة ونعومة، وهو يقول: "حسنا، دعها تأتي إلي، ولا تبطئ!".. واستقام في جلسته، وأخذ يقلب بعض الأوراق التي على مكتبه، وقد اتخذت قسمات وجهه الكئيبة مسحة رسمية صارمة.. وسمع من خلفه حفيف ثوب امرأة، فقال: "أي خدمة أستطيع أداءها لك؟".. وتحول في نصف التفاتة إلى زائرته، فرمقها بعين الفاحص المدقق. وأحنت السيدة رأسها دون أن تنبس ببنت شفة، سارت في خطى وئيدة إلى المكتب وهي تحملق في الضابط بعينين زرقاوين حزينتين، يعلوهما حاجبان مقطبان، وكانت ملابسها بسيطة، وقد لفت رأسها بوشاح، ووضعت على كتفيها دثارا باليا ظلت تلوي أطرافه بين أصابعها الرقيقة التي زانت يديها الصغيرتين.. وكانت فارغة الطول، ممتلئة الجسم، ناهدة الصدر، بارزة الجبين، أكثر جدا وصرامة من معظم النساء. وبدا أنها في نحو السابعة والعشرين.. وكانت تسير في خطى بطيئة، وقد استغرقت في التفكير، وراحت تردد، وكأنها تحدث نفسها: "ربما كان من المستحسن أن أعود أدراجي"..

وما إن رآها بودشيبلو حتى هتف يقول لنفسه: "يا للنموذج الجميل.. يا لسمكة البياض البديعة إنها ولاشك إحدى مثيرات المتاعب لك!"

وبدأت السيدة حديثها قائلة في صوت عميق: "بودي أن أعرف.."، ثم سكتت، واستقرت عيناها على وجه الضابط في نظرات حائرة يشيع فيها الشك والارتياب. فقال لها: "تفضلي بالجلوس، ما الذي تودين أن تعرفيه؟".. ومع أن بودشيبلو وجه هذا السؤال في لهجة رسمية، ألا أنه راح يقول فيما بينه وبين نفسه: "إنها لفاتنة" وأجابته: "جئت بشأن تلك البطاقات"

– بطاقات الإقامة؟

– كلا، ليست تلك البطاقات!

_ إذن فأي بطاقات تعنين؟

فقالت متلعثمة في ارتباك، وقد اصطبغ وجهها باللون القرمزي: "تلك البطاقات.. التي تعطى لـ.. للنساء!"

وسألها بودشيبلو وهو يرفع حاجبيه ويبتسم: "أية بطاقات تلك؟ وأي نوع من النساء ؟"

– اللواتي يذرعن الشوارع.. ليلا!

وقال بودشيبلو مبتسما: " أتعنين العاهرات!".

فقالت المرأة: "أجل". وتنفست الصعداء ثم افتر ثغرها عن ابتسامة وكأنما أزيح عن صدرها حمل ثقيل، بعد أن نطقت بهذه العبارة. وإذ ذاك قال بودشيبلو: "ما أراك تعنين ذلك!"، ثم صمت متوقعا أن يسمع جوابا مثيرا. فقالت المرأة: "إنما جئت من أجل تلك البطاقات. وارتمت على مقعد وهي تتنهد، وألقت برأسها إلى الوراء بطريقة غريبة، وكأن شخصا ما قد ضربها.

فقال: "فهمت.. إذن فأنت تفكرين في إدارة منزل للدعارة".

فأجابت: "كلا.. بل أريد البطاقة لنفسي". وأطرقت برأسها كثيرا.

فسألها بودشيبلو: "وأين بطاقتك القديمة؟".. ثم أخذ يقترب بمقعده منها، وقد مد إحدى يديها ليطوق خصرها، وعينه ترقب الباب!.. فأجابت المرأة: "أية بطاقة قديمة؟ .. إنني لا أحمل بطاقة البتة". ورمقته بنظرة سريعة، ولكنها لم تفعل شيئا لتدرأ يده عن خصرها. فقال بودشيبلو مشجعا، وقد ازدادت نظراته جرأة: "إذن فقد كنت تعملين سرا دون أن تسجلي اسمك.. البعض يفعل هذا. على أنك تريدين الآن أن تسجلي اسمك.. أليس كذلك؟"

وتلعثمت المرأة وهي تقول: "لم أفعل هذا من قبل"، ونكست بصرها إلى الأرض. فقال بودشيبلو وهو يهز كتفيه: "حقا؟ إنني لا أكاد أفهم". وإذ ذاك قالت المرأة في لهجة ناعمة، دون أن ترفع عينيها عن الأرض: "إنما

أفكر في الأمر، فهذه أول مرة آتي فيها لمشاهدة المعرض". فقال بودشيبلو: "إذن فهذا هو السبب".

ورفع يده عن خصرها، وابتعد بمقعده عنها، واستلقى إلى الخلف، دون حرج.. وسادهما الصمت لحظة، ثم قال بودشيبلو: "إذن فالأمر على هذا النحو؟!.. آه، أنك تريدين.. آه!.. انه اتجاه خاطئ.. وصعب.. والحق أنني لا أرى كيف تحملين نفسك على سلوك هذا المسلك؟ هذا إذا كان ما تقولينه صحيحا".

وكان– وهو ضابط البوليس المدرب– يرى أنها كانت صادقة. فقد بدت أكثر حشمة وتعففا من أن تكون عضوا في تلك المهنة.. ولم يكن يبدو على وجهها شيء من الامارات التي تدمغ وجه العاهرة وأخلاقها، مهما تكن حديثة العهد!..

وما لبثت أن قالت وهي تميل نحوه في نوبة من الثقة: "أقسم لك بشرفي أن ما قلته صحيح. وهل كنت أحفل بالكذب ما دمت قررت أن أسلك هذا الطريق الشائن التعس؟.. طبعا لا! ولكني بحاجة إلى المال، إذ أنني أرملة.. فقد كان زوجي ربان باخرة، وغرق عندما ذاب الثلج في أبريل الماضي. ولي طفلان: أحدهما صبي في التاسعة، والثاني طفلة في السابعة. ولست أملك شيئا من المال، وليس لي أحد من الاقارب، كما أن أقارب زوجي يقيمون بعيدا.. وهم لم يحبوني اطلاقا، إنهم موسرون وينظرون إلي كأنني شحاذة. فلمن ألجأ؟.. إن بوسعي أن أعمل، بيد أنني أحتاج إلى مال

أكثر مما أستطيع أن أربحه طوال عمري بالعمل، فإن ابني يتعلم في معهد للتربية البدنية.. إن بوسعي أن أتقدم بطلب لإعفائه من نفقات الدراسة، ولكن من الذي يلقى بالا إلى مثل هذا الطلب، وهو صادر من امرأة لا سند لها في العالم؟.. أن ابني متفوق ومن المؤسف إخراجه من المدرسة. ثم إن ابنتي الصغيرة تحتاج أيضا إلى أشياء كثيرة. أما الأعمال الشريفة، فلا يوجد منها الكثير.. وحتى إذا وفقت لوظيفة منها، فكم تراني أكسب؟.. لو أنني أصبحت طاهية لما زاد أجري عن خمسة روبلات في الشهر، وهي لا تكفيني.. أما في تلك المهنة التي اخترتها لنفسي، فإن المرأة تستطيع أن تكسب في المرة الواحدة ما يكفي لاطعام أسرتها عاما بأسره! بل لقد جنت إحدى نساء بلدتنا أكثر من أربعمائة روبل في المعرض الأخير، واستطاعت بهذه الثروة أن تتزوج حارس الغابة، وهي الآن تحيا حياة السيدات المحترمات.. أدع لك الحكم إنه القدر فيما أعتقد.. وإذا كانت هذه الفكرة قد رسخت في ذهني، فلابد أن يكون القدر أراد لي أن أسلك هذا الطريق. فإذا أنا أصبت شيئا من المال فأنعم به وأكرم، وإذا أنا لم أخرج الا بالخزي والعار فهذا حكم القدر"

وكان بودشيبلو يستوعب كل كلمة خرجت من شفتيها، إذ كانت كل ملامح وجهها تتحدث إليه.. وكانت تعلو قسماتها في أول الأمر لمحات الخوف والاضطراب، ولكنها أخذت تنقشع شيئا فشيئا ليحل محلها عزم واصرار صارمان!

وشعر معاون البوليس بكثير من الحرج، بل وبشيء من الانفعال أيضا، فأخذ يحدث نفسه قائلا: "لو أن امرأة كهذه وقعت على أبله لجعلته جلدا على عظم، بل لسلخت جلده حيا!".. هكذا تراءت له. فما إن انتهت من حديثها، حتى قال لها بجفاء: "إنني لآسف، ولكني لا أملك لك شيئا، فاذهبي إلى مدير البوليس إذ أن الذي تطلبينه من اختصاصه واختصاص القومسيون الطبي، ولا شأن لي بموضوعك!"

وكان تواقا إلى الخلاص منها. فما إن سمعت المرأة هذا منه، حتى نهضت لتوها، ثم اتجهت ببطء إلى الباب. وراقبها بودشيبلو وهي تنصرف، وقد زم شفتيه وضاقت عيناه.. وكان هذا هو كل ما يستطيع أن يفعله ليتجنب البصق خلفها!

والتفتت– بعد أن وصلت إلى الباب– وسألته: "إذن، يجب أن أذهب إلى مدير البوليس؟" فبادر بودشيبلو يجيبها قائلا: "أجل".. فانصرفت قائلة: "وداعا، وشكرا!"

ووضع مرفقيه على مكتبه، وأخذ يصفر لحنا لنفسه زهاء عشر دقائق، ثم تمتم دون أن يرفع رأسه عن المكتب: "يا للفاجرة!.. أطفال حقا! وما دخل الأطفال في هذا؟ يا للمومس!".. وأخلد للصمت فترة طويلة، ثم أخذ يناجي نفسه قائلا: "ولكن الحياة تكون هكذا أحيانا.. إذا كان ما قالته هذه المرأة صدقا. إذ أن الحياة تلف الشخص حول أصبعها الصغير.. إنها قد تعنف في قسوتها على المرء!"

وسكن برهة، ثم جمع كل ما كان يعتمل في ذهنه وعبر عنه بتنهدة عميقة، وقرقعة من أصابعه، وصيحة من أعماق نفسه خرجت مدوية من بين شفتيه: "يا للفاجرة!"

وسأله الشرطي الذي كانت عليه النوبة، وقد جاء إلى عتبة الباب ثانية: "هل أرسلت في طلبي؟".. فانتبه إليه قائلا: "ماذا؟".. فعاد الشرطي يقول: "هل أرسلت في طلبي يا صاحب الفخامة؟". فصاح بودشيبلو فيه: "اخرج".. وأجاب الشرطي: "سمعا وطاعة يا سيدي"، فغمغم بودشيبلو: "غبي"، وأخذ يتطلع من النافذة.. وكان "كوخارين" لا يزال يغط في نومه على "الدريس".. والظاهر أن الشرطي صاحب النوبة قد نسي أن يوقظه ولكن حنق معاون البوليس كان قد تلاشى، فلم يعد يأبه للشرطي النائم، إذ ظل طيف المرأة ذات العينين الزرقاوين الهادئين ماثلا أمامه.. وكانت العينان تنظران إليه في عزم واصرار، دون أن تتحولا عنه، مما بعث في نفسه هما وقلقا، ونظر إلى ساعته، ثم أحكم حزامه حول وسطه، وغادر المكتب وهو يتمتم: "أعتقد أنني سأقابلها يوما، لابد من ذلك!"

(٢)

ولقد قابلها فعلا ذات مساء، وهو يقف في نوبته خارج المكتب الرئيسي، لمحها على بعد نحو خمس خطوات منه. وكانت تتجه صوب الميدان، في مشيتها الوئيدة، وعيناها الزرقاوان تنظران إلى الأمام في خط مستقيم، وقد أحاط بها شئ من السحر والفتنة.. فقد كان طولها الفارع

وقوامها الرشيق، واهتزاز ردفيها ونهديها، وما كان في عينيها من استسلام.. كل هذا كان خليقا بأن يأسر أي شخص.. أما الخط الغائر في جبينها، والذي كان ينم عن خنوع بالغ للقدر، فقد أصبح أكثر عمقا وأجلى معنى مما رآه من قبل.. وأفسد ذلك وجهها الروسي المستدير إذ أضفى عليه صرامة بالغة!

وبرم بودشيبلو شاربيه وقد راودته خيالات فيها متعة ولذة، فقرر ألا يدعها تغيب عن نظره.. وانطلق وراءها وهو يوشك أن يصرخ: "انتظري يا أنثى التمساح!".. وما إن انقضت دقائق خمس حتى كان يجلس بجوارها على أريكة بالميدان وسألها وقد افتر ثغره عن ابتسامة: "ألا تذكرينني؟".. فنظرت إليه في هدوء، ثم أجابته في لهجة غلبت عليها الذلة: "أذكرك، كيف حالك؟". ولم تمد إليه يدها.. فعاد يسألها: "كيف تسير أمورك؟.. هل حصلت على بطاقة؟".. قالت: "نعم". وأخذت تبحث عن البطاقة في جيبها بنفس الروح الخانعة، وكان هذا مدعاة لأن تساوره الحيرة، فقال: "لا داعي لأن تطلعيني عليها، فإنني أصدقك... إنما أردت أن أقول.. كيف تسير أمورك؟". وما أن وجه إليها هذا السؤال حتى أخذ يحدث نفسه: "وماذا يعنيني من أمرها؟ ولماذا أدور وألف معها؟ هلم صارحها يا بودشيبلو!"

ولكنه عجز رغم ما كان يحث به نفسه من عبارات التشجيع عن "مصارحتها".. فقد كان فيها شيء يحول بين المرء وبين أن يراودها في أمر

معين!.. وعادت في تلك الأثناء تقول: "كيف تسير أموري؟ لا بأس، والفضل..."، ثم توقفت وأحمر وجهها خجلا.. فقال الشرطي: "هذا عظيم، واهنئك! أعتقد أن الأمر صعب إلى أن تألفيه. أليس كذلك؟"

ومالت إليه بغتة، وقد أبيض وجهها واختلج، واستدار فمها، وكأنها تريد البكاء. ولكنها تراجعت فجأة وتمالكت نفسها واتخذت موقفها السابق، وقالت: "هذا صحيح، فسأتعود على مر الأيام" ثم أخرجت منديلها وتمخطت في صوت عال.

وكان لوجودها إلى جوار بودشيلو ولحركاتها ولعينيها الزرقاوين الهادئتين تأثير ممض في نفسه، فنهض في غمرة من الغضب ومد إليها يده دون أن ينطق حرفا. فقالت له بصوت رقيق: "إلى اللقاء" وأحنى رأسه ثم أنصرف، وهو يلعن نفسه لغباوته.

وأخذ يتمتم: "انتظري أيتها السيدة المتعالية، سأريك يوما.. ما إن تذوقي مرة طرفا من رجولتي حتى تنزلي عن عرشك هذا المتعالي!".. بيد أنه أدرك في الوقت نفسه أنها لم ترتكب شيئا تستحق من أجله هذه الثورة من الغضب.. وزاده هذا غيظا على غيظ!

(٣)

وفي الأسبوع التالي، كان بودشيلو يسير من حي "سراي القافلة" إلى "رصيف سيبريا"، حين طرقت أذنه أصوات سباب، وصراخ نساء، وأصوات أخرى قبيحة، تنبعث من نافذة حانة في الطريق، فتوقف منصتا..

فسمع صياح امرأة تستغيث "النجدة البوليس"، ووقع لكمات عنيفة، وارتطام بعض الأجسام بقطع الأثاث، وصوت رجل أجش طغى على كل ما عداه من الأصوات وهو يهتف: "سلمت يدك! اضربيها مرة أخرى!في وجهها تماما". فأسرع معاون البوليس يرقى الدرج، حتى بلغ باب الحانة. وأخذ يشق طريقه إلى الداخل بين المحتشدين الذين تجمعوا حول الباب يشاهدون ما يجري، فوقع نظره على صاحبته ذات العينين الزرقاوين منبطحة على مائدة وقد أمسكت بيسراها شعر امرأة أخرى في حين أخذت تكيل لها بيمناها ضربات سريعة قاسية، حتى تورم وجه تلك المرأة، وكانت عيناها الزرقاوان قد ضاقتا، وانطبقت شفتاها لفرط ما كان يعتمل في نفسها من قسوة وعنف، وقد امتد خطان عميقان من ركني فمها إلى ذقنها، وتغيرت ملامح وجهها. وكان عهده به وجها هادئا، فإذا به قد أصبح حافلا بحنق الحيوان المتوحش.. أما المرأة التي كانت تتلقى الضربات، فلم تقوى إلا على التمتمة بصوت ضعيف، وهي تحاول تخليص نفسها من قبضة الضاربة، وتلوح بيديها في الفضاء وصعد الدم إلى رأس بودشيبلو، فاندفع وأمسك بالمرأة وجذبها من خصرها بعيدا.. وانقلبت المائدة، وتهشمت الصحاف وهي تسقط على الأرض، فأرسل المتفرجون صراخا عاليا، واختلطت صيحاتهم بالضحكات التي انطلقت من حناجرهم. وبلغ الغضب ببودشيبلو مبلغه، وهو يرى جموعا من الوجوه الحمراء المتجهمة تلوح أمام ناظريه، فأمسك بالمرأة المناضلة بين ذراعيه وهمس محنقا في أذنها: " أأنت من تثيرين الشغب؟"

وكانت ضحية المرأة ذات العينين الزرقاوين قد افترشت الأرض بين الصحاف المكسورة وهي تنتحب.. وتقدم رجل صغير القامة، خفيف الحركة، يرتدي معطفا طويلا، وأخذ يشرح لبودشيبلو ما حدث: "لقد قالت تلك لهذه يا صاحب الفخامة: أيتها المومس القذرة"، فضربتها هذه بأطراف أصابعها، فألقت عليها تلك كوبا من الشاي، فأمسكت تلك من شعرها ثم كالت لها اللكمات أخرى.. إن أي رجل ليحسدها على لكماتها هذه"..

وزمجر بودشيبلو وهو يقول: "مفتولة العضلات حقا"، وأخذ يعصر المرأة عصرا بين ذراعيه وهو يحس برغبة عنيفة في كبح جماح نفسه، وكان ثمة رجل ذو قفا عريض أحناه بشكل يبعث على الضحك قد أطل من النافذة وراح ينادي: "أزفوتشيك تعال هنا".. فقال بودشيبلو للمرأتين: "هيا إلى مركز البوليس كلتاكما!".. ثم التفت إلى الشرطي الذي أقبل إذ ذاك، وقال: "لماذا تأخرت إلى هذا الحد؟ خذهما إلى مركز البوليس.. خذهما معا!"

وتقدم الشرطي فلكز إحداهما في ظهرها، ثم لكز الأخرى، وساقهما إلى مركز البوليس.

وقال بودشيبلو لخادم الحانة: "كونياك وصودا.. أسرع!". وألقى بنفسه على مقعد بجانب النافذة، وقد فاض به الشعور بالتعب وبالغضب من كل إنسان وكل شيء!

ووقفت أمامه المرأة في صباح اليوم التالي هادئة رصينة، كما بدت له في أول يوم وقع نظره عليها. وأخذت ترمقه بعينيها الزرقاوين وهي تنتظر أن يبدأها بالحديث.. وكان بودشيبلو ثائر الأعصاب في ذلك الصباح بوجه خاص، إذ انه لك يكن قد نال قسطه الكافي من النوم، فأخذ يلقي بالأوراق على مكتبه. ولكن هذا لم يساعده على أن يجد ما يقوله لها، وأبت تلك التهم والعبارات الجارحة التي تعود أن يلقى بها في مثل تلك المناسبة أن تخرج من فيه، فقد كان يريد أن يقذف في وجهها بعبارات أقوى، تحمل في طياتها قسوة وعنفا يؤلمان..

– كيف بدأ العراك؟ هلمي، تكلمي!

فأجابت المرأة: "لقد أهانتني".

فقال بودشيبلو بلهجة تنم عن السخرية: "تخيلي هذا! يا لها من جريمة!"

– لم يكن هذا من حقها، فلا وجه لمقارنتي بها!

– يا إلهي! ومن تظنين نفسك؟

– إن الحاجة هي التي دفعتني لسلوك هذا السبيل، أما هي...

– آه، حقا..إنها تمارس مهنتها للمتعة واللهو.. أليس كذلك؟

– هي؟

– أجل، هي!؟

– أنها لا تعول أطفالا!

– كفى هراء أيتها السافلة! لا تحسبي أن بوسعك أن تؤثري علي بقصة أطفالك هؤلاء.سأتركك هذه المرة.. أما إذا عدت فأثرت شغبا، فسأمهلك أربعا وعشرين ساعة لتغادري المدينة، بعيدا عن المعرض. أتفهمين هذا؟.. اطمئني، فإنني خبير بمن هن على شاكلتك، وسأريك كيف تحافظين على النظام، أو تريدين أن تعبثي بالأمن؟ حسنا، سألقنك درسا أيتها الفاجرة!".. وخرجت الكلمات من فيه تتابع في يسر وسهولة! وكل منها أشد إيلاما من الأخرى، فشحب وجه المرأة واتخذت عيناها بالشكل الذي كانتا عليه في الليلة السابقة، أثناء الشجار في الحانة.

وصرخ بودشيبلو فيها يأمرها بالخروج، وضرب المكتب بقوة. فردت عليه في لهجة جافة: "فليحاسبك الله على ما تقول".

ثم عجلت بالخروج من المكتب. فصرخ بودشيبلو قائلا: "سأريك كيف يكون الحساب". فقد كان ذلك الوجه الرزين الهادئ، والنظرات التي كانت تسددها إليه عيناها الزرقاوان الكبيرتان، وتدفعه إلى الجنون.. من تراها كانت تحسب نفسها؟.. أطفال؟هراء! إنها مجرد حجة تتذرع بها، إذ ما دخل الأطفال في الموضوع؟.. إنما هي عاهرة عادية تذرع الشوارع!.. هذه هي على حقيقتها، جاءت إلى المعرض في طلب الثروة، وهي تتعالى وتتعاظم في غير ما يدعو إلى التعالي والتعاظم!.. شهيدة على مذبح التضحية.. دفعت دفعا إلى الطريق الذي تسلكه!.. من أجل الأطفال؟!..

من الذي تحسب أن مثل هذا الهراء ينطلي عليه؟.. إن كل ما هنالك هو أنها لا تقوى على البوح بالحقيقة، ولذلك حاولت أن تنحى باللائمة على الظروف.. تبا لها!

على أنه كان ثمة طفلان فعلا.. صبي صغير منبعج الرأس يغلبه الحياء، يرتدي زيا رياضيا باليا، ويربط منديلا أسود وق أذنيه.. وفتاة صغيرة ترتدي معطفا مخططا أكبر من جسمها. وكانا يجلسان على بعض الألواح الخشبية عند رصيف ميناء (كاشين) يرتجفان من تأثير رياح الخريف، ويتحدثان في هدوء. وكانت أمهما تقف بجانبهما مستندة إلى بعض بالات القطن، ترنو إليهما بعينين زرقاوين تفيضان بكل معاني الحب..

وكان الصبي الصغير يشبهها تماما.. فقد كانت عيناه هو الآخر زرقاوين، وكثيرا ما كان يلف قبعته التي انكسرت حافتها حول رأسه، ويرفع عينيه لأمه يقول لها شيئا. أما الفتاة الصغيرة فقد ترك الجدري آثارا على وجهها. وكان لها أنف صغير مستقيم، وعينان عسليتان واسعتان تفيضان حيوية وذكاء.. وكانت اللفافات والطرود تتناثر حول الطفلين على ألواح الخشب.

كان ذلك في أواخر شهر سبتمبر.. وكان المطر قد ظل ينهمر طول اليوم، فتحولت ضفة النهر إلى أرض موحلة، وأخذت الرياح الباردة الرطبة في الهبوب، وهاج نهر (الفولجا) فراحت أمواجه الصاخبة تنكسر على الشاطئ، حتى شاع في الجو- من تكسرها- هدير منتظم. وكان الناس من كافة الطبقات يغدون ويروحون، وقد علا وجوههم القلق والاضطراب، وأخذوا

يسرعون في طريقهم. وكانت هذه الجماعة الهادئة المؤلفة من الأم وطفليها تستوقف النظر.. ولم يكن يسع المشاهد ألا أن يقارن بين هذا الهدوء الذي خيم عليهم، وبين ضجيج النهر الذي كانوا يقفون على شاطئه!

ولقد استوقف ها المشهد نظر معاون البوليس بودشيبلو، فبقى بعيدا عنهم، يرقب ثلاثتهم مراقبة دقيقة، وكأنه يحصي عليهم حركاتهم وسكناتهم.. وشعر بالخجل من موقفه دون أن يدرى لذلك سببا معينا!

وكان من المقرر أن تقلع باخرة (كاشين) من هذا الرصيف بعد نصف ساعة، ميممة شطر أعالي النهر، فأخذ الناس يروحون ويجيئون على الرصيف.. وانحنت ذات العينين الزرقاوين، ثم استقامت وحملت فوق كتفيها وتحت إبطها الحقائب واللفافات، وهبطت الدرج وراء طفليها اللذين سارا أمامها متشابكي الأيدي، وقد حملا على كتفيهما نصيبهما من اللفافات والطرود. ووجد بودشيبلو نفسه مكرها على النزول إلى الرصيف هو الآخر. وكان بوده أن لا يفعل، بيد أنه لم يقو على صد نفسه. وما لبث أن وجد نفسه على مسافة قريبة من شباك التذاكر، فإذا المرأة تشتري التذاكر لطفليها، وقد أمسكت بكيس بني ضخم انتفخت جوانبه، وبرزت منه لفافة من أوراق نقدية..

وسمعها تقول: "أريد.. أقصد، هاك الأمر.. أريد أن يسافر الطفلان في الدرجة الثانية إلى كوستروما، وسأسافر أنا في الدرجة الثالثة. ولكن هل

يمكن أن يسافرا بتذكرة واحدة من فضلك؟ كلا؟.. ستعاملهما معاملة استثنائية؟.. شكرا جزيلا، وليباركك الله!"

وغادرت شباك التذاكر ووجهها مشرق، فتدافع حولها الطفلان، وهما يشدان ثوبها طالبين شيئا ما، فأنصت إليهما، والابتسامة لا تفارق شفتيها. وهتفت: "يا إلهي!.. وعدتكما بأن أشتريه لكما.. ألم أعدكما بذلك؟.. وهل أنكر؟ انتظراني هنا!"

ثم توجهت إلى أحد الحوانيت الخشبية المتناثرة على الرصيف، حيث تباع الفاكهة والحلوى، وما لبثت أن عادت إلى طفليها قائلة: "إليك بعض الصابون الذكي الرائحة يا فاريا، شميه!.. وإليك يا بتيا مبراة. هأنتذا ترى أنني لم أنس.. وإليكما دستة كاملة من البرتقال. ولكن، لا تأكلاه كله فورا!"

واقتربت الباخرة من الرصيف، فاحتكت به وهزته، فاختل توازن بعض الناس وانطرحوا أرضا. ومدت المرأة يديها في لهفة تضم طفليها إلى صدرها، ثم أخذت تتطلع حولها في جزع، فلما لم تجد سببا لانزعاجها، ضحكت فضحك معها طفلاها. ومدت الباخرة المعبرة إلى الرصيف، فأخذ الركاب يتدفقون إليها. وغذ ذاك صرخ بودشيبلو في الجمهور قائلا: "تمهلوا! لا تتدافعوا!".. ثم زجر نجارا كان يحمل مطارقه ومناشيره ومثاقبه وما إليها من أدوات، قائلا: "أنت أيها الغبي! لعنة الله عليك! أفسح للسيدة وطفليها! يا لك من بليد!"

ونطق بالعبارات الأخيرة في لهجة أكثر رقة حينما رأى ذات العينين الزرقاوين تبتسم له وهي مارة به، وتنحني محيية عندما وصلت إلى الباخرة!

وأطلقت الباخرة صفيرها لثالث مرة. وأصدر القبطان أمرا برفع المرساة، فأخذت الباخرة تهتز، ثم بدأت تتحرك. وأجال بودشيبلو عينيه باحثا عن صاحبته بين الركاب الذين كانوا على ظهر الباخرة، فلما وقع نظره عليها رفع قبعته وانحنى احتراما. فأجابته بانحناءة روسية صغيرة ورسمت إشارة الصليب..

وهكذا عادت هي وطفلاها إلى (كوستروما) وما إن ودعهم بودشيبلو– معاون البوليس– حتى تنهد من أعماق نفسه، وعاد إلى مكتبه، وقد غلبه الحزن والكآبة!

أحزان أم

في ركن الفقراء من المقبرة، وبين القبور التي تناثرت عليها أوراق الأشجار، وخلفت الأمطار والرياح عليها آثارها، كانت ثمة امرأة في ثوب من قماش رخيص، وعلى رأسها شال أسود، وقد جلست عند أحد القبور، تحت ظلال الفروع القليلة لشجرتين من شجر «التامول»، مجردتين من الأوراق تقريبا. وكانت تنسدل على أحد خديها الذابلين خصلة، من شعر أشيب، بينما بدت شفتاها الرقيقتان مزمومتين، وقد انثني ركنا فمها إلى أسفل، تحيط بهما تجعدات تنم عن الحزن..كذلك كانت جفونها مقرحة تشيء بالإفراط في البكاء، وطول السهد والهم!

وظلت المرأة جالسة لا تصدر عنها حركة، بينما كنت أقف على كثب أرقبها.. ولم تتحرك عندك ازددت اقترابا منها، بل كلن كل ما فعلته هو أن رفعت نحوي عينين واسعتين، خاليتين من أي بريق، ثم تركتهما تنخفضان ثانية، دون أن تبدي أي مظهر للفضول، أو الحرج، أو ما ينم عن أن اقترابي منها أثار أي شعور في نفسها!

وألقيت عليها تحية موجزة، وسألتها عمن دفن في القبر، فأجابت في غير اكتراث ورصانة: «ابني»

– أكان شابا كبيرا.

– كان عمره أثنى عشر عاما.

– ومتى مات؟

– منذ أربعة أعوام.

وأرسلت زفرة عميقة، ودست الخصلة النافرة إلى موضعها تحت الشال. وكان اليوم حارا، والشمس تصب شواظها دون ما رحمة على مدينة الموتى تلك، حتى لقد استحال لون العشب القليل، النابت على القبور، بنيا أسمر، لفرط الحرارة والتراب، بينما سكنت أوراق الشجيرات المغبرة الخشنة، التي كانت تقوم كئيبة بين الصلبان، وكأنها هي الأخرى ميتة!

وعدت أسأل المرأة وأنا أشير برأسي نحو قبر الصبي: «وكيف كان موته؟». فأجابت في اقتضاب، وهي تمد يدا مغضنة لتربت القبر: «لقد داسته سنابك الخيل حتى مات!»

– وكيف كان ذلك؟

وكنت أعلم أني أجافي الذوق والمجاملة، ولكن أعراض المرأة وهدوءها أثاراني وحرضاني، حتى لقد وسوست لي نزوة لم أدر لها مبررا، بالرغبة في أن أرى الدموع في عينيها!..كان ثمة شئ غير طبيعي في سكونها، وان لم يفتني – في الوقت ذاته – أن أتبين أنه لم يكن مصطنعا!.. وحملها سؤالي على أن ترفع عينيها مرة أخرى نحوى، فلما تأملتني متفحصة من رأسي إلى قدمي –

في صمت – أرسلت زفرة قصيرة، وبدأت تروي قصتها في صوت وقور، هادئ، مفعم بالشجن:

«إليك ما جرى.. كان أبوه في السجن جزاء الاختلاس، وقد قضى عاما ونصف العام. وكنا في تلك الفترة قد أتينا على كل ما كان مدخرا لدينا من مال.. وما كان هذا المال المدخر بالكثير. وما إن خرج زوجي من السجن، حتى كنا قد بلغنا من الادقاع درجة اضطرت معها إلى أن أتخذ من ثمار اللفت الليفي وقودا للتدفئة. فقد أعطاني بستاني – كنت أعرفه – ملء عربة من ثمار اللفت الليفي التالفة، فجففتها، وأخذت استعملها مع الروث المجفف كوقود، فكانت ترسل دخانا فظيعا، وتفسد مذاق الطعام!»

واستطردت المرأة قائلة: «وكان كولوشا – ابني – يذهب إلى المدرسة. وكان صبيا خفيف الحركة، حاضر البديهة، جد مدبر ومتقصد، حتى أنه كان يحضر معه إلى البيت دائما كل ما يصادفه من قطع الخشب والوقود التي يعثر عليها أثناء عودته من المدرسة. وكنا إذ ذاك في فصل الربيع، وقد أخذ الجليد في الذوبان، ولم يكن لدى كولوشا ما ينتعله سوى حذاءين من اللباد. وكان إذا ما خلعهما، بدت قدماه شديدتي الاحمرار.وفي تلك الأثناء، أطلقوا سراح أبيه، فأخرجوه من السجن، ونقلوه إلى البيت في عربة، إذ كان قد أصيب بالشلل. وظل راقدا في البيت، يرمقني وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة، فكنت أرمقه وأنا أقول له في نفسي: «انك أنت الذي جلبت على كل هذا..والآن، هل تراني سأطعمك؟..إنك

الجدير بأن تلقى في مستنقع قذر، وهذا ما أتمنى أن أفعله بك!».. ولكن كولوشا بكى حين رآه، وشحب وجهه حتى صار في بياض غطاء الفراش، وتدافعت الدموع غزيزة، كبيرة، على خدية، وسألني:«ماذا جرى له يا أمي؟». فقلت له: «لقد أخذ حظه من الحياة!»..

ومنذ ذلك اليوم أخذت الأمور تسير من سيء إلى أسوأ. ورحت أعمل حتى أصبحت جلدا على عظم، ولكنني كنت، مهما أضني نفسي، لا أحصل على أكثر من عشرين كوبيكا.. ولا يحدث هذا إلا في الأيام التي يواليني فيها الحظ!

«كانت حياة أسوأ من الموت، حتى أنني كثيرا ما فكرت في أن أقضي على نفسي بيدي. ولقد فطن كولوشا إلى حالي هذه، فساءت حالته النفسية. وعندما خيل لي مرة أنني لم أعد أحتمل، هتفت في أسى: «يا ألهذه الحياة اللعينة التي أحياها!. ألا ليتني أموت.. أو ليت أحدكما يموت!».. وكنت أوجه الخطاب إلى كولوشا وأبيه.واكتفى الأب بأن هز رأسه، وكأنه يقول: «لسوف أرحل عما قريب، فلا تتململي، ولكن اصبري!»..أما كولوشا، فقد رمقني بنظرة طويلة، ثم أشاح عني، وغادر البيت.وما إن خرج، حتى شعرت بالندم للكلمات التي قلتها، ولكن وقت الندم كان قد فات.. ولم تعد ثمة فرصة لتداركه.فلم تنقض ساعة حتى أقبل شرطي في مركبة، وقال: «أ أنت جوسبوشا شيشينينا؟». وغاص قلبي بين ضلوعي، بينما عاد الشرطي يقول: «إنك مدعوة إلى المستشفى، فإن جياد

التاجر أنوخين قد داست ابنك».. وركبت لتوي إلى المستشفى، وكأنما كان ثمة من نشر على مقعد العربة جمرا من نار متقدة. وظللت طيلة الطريق أقول لنفسي: «ما الذي فعلته أيتها المرأة التعسة؟»

«ووصلنا أخيرا، فإذا كولوشا راقد في سرير، وجسمه ملتف كله في الضمادات. وابتسم لي، وانحدرت الدموع على خديه.. وقال هامسا: «اغفري لي يا أماه.. لقد أخذ الشرطي النقود». فقلت: «عن أية نقود تتكلم ياكولوشا؟»..فقال: «لهذا»، ثم أرسل أنينا خافتا قصيرا.. واتسعت عيناه، فقلت: «كيف لم ترد الجياد وهي مقبلة عليك ياكولوشا؟». وإذ ذاك قال في بساطة وجلاء: «بل رأيتها يا أماه، ولكنني لم أشا أن أتحول عن طريقها، إذ خطر لي أن الناس سيمنحونني نقودا، إذا هي داستني.. وقد منحوني فعلا!».. تلك كانت عين كلماته، بالنص!»

وتابعت المرأة قصتها قائلة: «إذ ذاك تبينت كل شيء، وأدركت ما فعله ملاكي بنفسه، ولكن الأوان كان قد فات. إذ مات في الصباح التالي. وقد ظل محتفظا بصفاء ذهنه حتى اللحظة الأخيرة، وكان يقول: «اشتري لأبي هذا..وأشتري له ذاك.. وابتاعي شيئا لنفسك أنت الأخرى! وكأنما كانت هناك أموال طائلة. وكانت هناك في الواقع سبعة وأربعون روبلا.. فذهبت إلى التاجر أنوخين، ولكنه لم يمنحني أكثر من خمسة روبلات، وهو يزمجر ويعترض، ويقول: «لقد ألقى الصبي بنفسه تحت الجياد، وقد رآه الكثيرون.فلأي شئ جئت تستجدينني مالا؟» «ولم أذهب إليه بعد ذلك

قط..وهذا كل ما حدث أيها الشاب» وكفت عن الكلام، ثم استعادت ما كانت عليه من برود وجمود..

وكانت المقبرة هادئة، خالية من الناس. وكانت الصلبان والأشجار الذابلة، وكثبان التراب التي كانت القبور تتألف منها، وهذه المرأة الجامدة الواجمة التي جلست على القبر في ذلك الوضع الحزين.. كانت كل هذه الأشياء تجعلني أفكر في الموت، وفي الآلام التي يعانيها البشر!

ولكن السماء كانت خالية من السحب، وقد أخذت تسكب على الأرض قيظا حارقا..فتناولت بعض قطع النقود من جيبي، وقدمتها للمرأة التي كانت باقية على قيد الحياة، رغم أن النكد وسوء الحظ والتعاسة كانت كفيلة بقتلها!..ولكنها هزت رأسها وقالت في تؤدة غريبة:

– لا تزعج نفسك أيها الشاب، فقد نلت كفايتي اليوم، ولم أعد أرغب في مزيد. إنني وحيدة في الحياة.. وحيدة تماما!

وأرسلت زفرة حرى، وعادت تزم شفتيها إلى الدرجة التي كان فمها ينثني عندها بذلك الشكل الحزين الذي رأيتها عليه في البداية!

وكر العاهرة

ذات ليلة صيفية مشبع جوها المشبع بالرطوبة، رأيت في حارة جانبية ضيقة، عند أطراف المدينة، منظرا غريبا..منظر امرأة وقفت وسط بركة ماء كبيرة، وهي تدب بقدميها فتنثر الوحل حولها، على غرار ما يفعل الأولاد الصغار..وفيما كانت تفعل ذلك، راحت تردد أغنية بذيئة، بصوت كان ينبعث من أنفها!

كان ثمة عاصفة قد اجتاحت المدينة أثناء النهار، فإذا السيل الغزير المنهمر قد أحال أرض الحارة المتربة إلي وحل.. وكانت بركة الماء عميقة، حتى لقد كاد ماؤها يبلغ ركبتي المرأة. وكان صوتها – وهي تغني – يوحي بأنها ثملة، حتى إذا تعبت من رقصها هذا، جلست في البركة، مما كان يجعلها عرضة للغرق في الماء الموحل.. فرفعت عنقي حذاءي، وخضت إليها فأمسكت بذراعيها وجررتها إلي بقعة جافة. وتبدي جليا أنها ذعرت في أول الأمر، فأسلمت قيادها لي طائعة، دون أن تنبث ببنت شفة. ولكنها ما لبثت أن انتزعت ذراعها اليمنى – من قبضتي – بحركة عنيفة من جسمها كله، وضربتني بكفها على صدري، وصرخت: «الغوث!» ثم عادت تسعى إلى وسط البركة في إصرار، وهي تجرني معها، صائحة في عبارات متلعثمة:

«أيها الشيطان!.. لن أذهب!.. سأمضي في حال.. وامض في حالك..النجدة!»

وبرز حارس الليل من جوف الظلام، فوقف، على بعد خمس خطوات منا، وقال في لهجة ارتياب: «من الذي يحدث هذا الشغب؟». فذكرت له أنني خشيت على المرأة أن تغرق في الوحل، فسعيت لانتشالها.وتفرس الخفير في المرأة الثملة عن كثب، ثم بصق بصوت عال، وصاح آمرا: «اخرجي يا ماشكا!»، فقالت المرأة: «لن أخرج!».. وعاد يقول: «قلت لك اخرجي»، فكان جوابها: «لن أخرج!». وإذ ذاك قال، في غير ما غل أو ضغينة: «لسوف أضربك أيتها الفاجرة!»، ثم التفت إلي وقال في صوت خافت: «أنها تعيش على مقربة من هنا.. وهي تتعيش من جمع فضلات الثياب البالية. واسمها ماشكا.. هل معك سيجارة؟»

وأشعلنا سيجارتين، بينما أخذت المرأة تخوض البركة في عناد، وهي تصيح بين آن وآخر: «أيها السيدان..إنني سيدة نفسي! لسوف أستحم هنا، ما دمت راغبة في ذلك!»..فقال الخفير – وكان شيخا ملتحيا متين البنيان: «سأهيئ لك حماما!».. ثم التفت إلى قائلا: «هكذا تفعل هي في كل ليلة تقريبا.. مع أن لها ابنا مقعدا في البيت!»

– وهل هي تعيش بعيدا عن هنا؟

فلم يجبني، وإنما مضى يتابع حديثه الأول: «إنها خليقة بأن تعدم رميا بالرصاص!». فقلت: «بل هي أهل لأن تنقل إلى دارها»

فأخفى وجهه في لحيته وضحك، ثم رفع سيجارته نحو وجهي..وما لبث أن ابتعد سائرا في الحارة الموحلة وهو يقول: «خذها، ولكن.. تأمل خلقتها أولا!»

وفي تلك الأثناء، كانت المرأة قد جلست في الوحل وراحت تنثره بيديه، وهي تغني مرسلة صراخها العالي من أنفها: «على صفحة البحر العميييق!..»

وبزغت نجمة خلال الفراغ المعتم الذي كان يمتد فوقنا، فانعكست صورتها على الماء الموحل السميك، غير بعيدة عن البقعة التي جلست فيها المرأة. وكان انعكاس النجمة يتلاشى كلما تحرك سطح الماء. وعدت أخوض البركة، ثم وضعت يدي تحت أبطئ المغنية ورفعتها، واستعنت بركبتي على دفعها إلى خارج الماء. وراحت هي تتشبث بمكانها،

وتلوح بذراعيها، وتهددني صارخة: «حسنا..اضربني! اضربني!.. لا بأس، اضربني!..آه، يا لك من وحش!.. آه، يا لك من جزار!.. امض في ضربي!»

وأسندتها إلى سياج، وسألتها عن عنوان مسكنها، فرفعت رأسها المثقل بالخمر، وتأملتني بالبقعتين السوداوين اللتين كانتا تمثلان عينيها، فلاحظت أن أنفها كان غائرا في البقعة المخصصة له من وجهها، حتى أنه لم يكن يبدو كأكثر من زر!.. وكانت شفتها العليا مشقوقة وملتوية بتأثير جرح قديم، وقد كشفت عن أسنان دقيقة.. وكانت على وجهها المشوه

الصغير ابتسامة عنيدة، متمردة. وقالت أخيرا: «فليكن.. لنذهب إلى البيت!»

وسرنا معا، وقد التزمنا جانب السياج.. وكان طرف ثوبها المبتل لا ينفك يلفح ساقي.. وأخذت تغمغم وكأنها أفاقت من سكرها: «هيا يا عزيزي.. سأدعوك إلى البيت وسأريحك!» وانتهت بي إلي ساحة دار كبيرة، ذات طابقين.. وسارت في حذر – كما يتحسس الأعمى طريقه – بين عربات وبراميل وصناديق وأكوام من خشب الوقود، ثم وقفت أمام ثغرة في أسفل المبنى، ودعتني قائلة: «تفضل..ادخل!».. وهبطت الدرجات الزلقة، وأنا أستند إلى الجدارين الضيقين اللذين كانا يحفان بها، وقد أحطت خصر المرأة بذراعي لأقيها السقوط، وأنا لا أكاد أقوى على تلك المهمة..حتى التقت قدماي بشريط اللباد القائم أمام الباب، فتلمست مقبض الباب وفتحته. ووقفت على عتبة فجوة سوداء، دون أن أجد من نفسي جرأة على التقدم خطوة واحدة..

وانبعث من الظلام صوت ناعم متسائلا: «أهذه أنت يا أماه؟».. فأجابت المرأة الثملة في رفق: «أجل.. هذه أنا !»

وتصاعدت إلى خياشيمي رائحة التراب المثقل بالرطوبة، وعبير القار.وأشعلت عود ثقاب، فكشف لهبه الضئيل – في لحظة اتقاده – عن وجه صبي شاحب. ثم خبا الضوء.وقالت المرأة وهي تترنح: «ومن سواي يفد عليك؟.. أجل، هذه أنا!».. واشتعل عود ثقاب آخر، وسمعت رنين

زجاج، ثم أوقدت يد نحيلة ضامرة مصباحا صغيرا من الصفيح، وقالت المرأة: «يا حبيبي!»، ثم تمايلت، وتهالكت في ركن الغرفة.. وكان ثمة سرير عريض، لا يكاد يرتفع عن الأرض المرصوفة بالطوب!

وقرب الطفل – الذي كان في الغرفة – وجهه من المصباح متفحصا اللهب، ثم أصلح من فتيل المصباح حين رآه وقد بدأ يبعث دخانا.وكان له وجه صغير حزين، ذو أنف حاد، وشفتين ممتلئتين كشفتي الفتاة..كان وجها صغيرا كأنما رسم بريشة دقيقة، وما كان أحراه بأن يوجد بعيدا عن مثل هذا الجب الرطب المظلم!.. وما إن أصلح الصبي المصباح، حتى تطلع إلى بعينين تحف بهما أهداب كثيفة، وسألني: «أمخمورة هي؟»وكانت أمه – المستلقية على عرض السرير – تفص بالفوارق (الزغطة) وترسل غطيطا. فقلت: «يحسن تجريدها من ثيابها". فغض الصبي بصره وأجاب: "جردها!". فلما شرعت أرفع ثوب المرأة المبتل، سألني في هدوء، وفي لهجة تجارية: "المصباح.. هل أطفئه؟". فقلت وأنا خالي البال: "ولماذا؟".. ولكنه لم يجب، وأخذ يراقبني وأنا أقلب أمه وكأنها كيس ملئ بالدقيق!

وكان الصبي يجلس على الأرض، في صندوق صنع من ألواح من الخشب السميك، وقد نقش عليه بحروف سوداء. "يحمل بحذر. شركة ن. ر. وشركاؤه".. مما نم عن أنه من الصناديق التي توضع فيها السلع التجارية. وكانت كتفا الصبي تحجبان الحافة الدنيا من فراغ النافذة.. وكانت ثمة أرفف عدة مثبتة إلى الجدار، وعليها أكوام من علب السجاير

وعلب الثقاب. وإلى جوار الصندوق الذي جلس فيه الصبي، كان ثمة صندوق آخر، مغطى بورق أصفر، يدل مظهره على أنه يستخدم كمنضدة!.. وراح الصبي يتطلع إلى زجاج النافذة- الذي كان يعكس ظلام الليل- وهو يحيط عنقه بيديه الصغيرتين المثيرتين للاشفاق.

وإذ خلعت عن المرأة ثيابها المبتلة، ألقيت بهذه الثياب على المدفأة، وغسلت يدي في حوض من الفخار كان في أحد الأركان، ثم جففتها في منديل، وقلت للصغير: "والآن، وداعا!". فتطلع إلي، وسألني وهو يتكلم في لثغة بسيطة: "هل أطفئ المصباح الآن؟". فأجبت: "إذا راق لك ذلك"

- وأنت.. هل ستنصرف؟.. ألن تأوي إلى الفراش.. معها!

وأشار بيده الصغيرة إلى أمه، فقلت مذهولا، متبلد الفهم: "ولماذا؟". وإذا به يقول في بساطة مؤلمة: "أنت أدرى"، ثم تمطي وأردف قائلا: "كلهم يفعلون هذا!".. وتلفت حولي وقد عراني الخجل، فإذا إلى اليمين فوهة مدفأة قبيحة الشكل، وقد تناثرت على رفها أطباق قذرة.. وفي ركن الحجرة- خلف صندوق- تراكمت قطع من الحبال المطلية بالقار، وكومة من الأسمال البالية، وقطع من خشب الشجر لوقود، وحامل لرفع دلاء الماء.. وعند قدمي- على السرير المنخفض- كانت المرأة الشاحبة اللون مستغرقة في النوم والغطيط!

وسألت الصبي: "أتأذن لي بالجلوس برهة؟".. فتطلع إلى من تحت حاجبيه، وقال: "ولكنها لن تستيقظ قبل الصباح". فقلت: "ولكنني لا

أريدها في شيء". ثم تهالكت على الأرض بجوار صندوقه، ورويت له كيف التقيت بأمه. وحاولت في البداية أن أخفف من وقع القصة، بأن أرويها بأسلوب فكاهي فقلت: "كانت جالسة في الوحل، تجذف بيديها وتغني..."، وهز الصبي رأسه، وابتسم ابتسامة باهتة، ثم قال وهو يحك صدره: "كانت ثملة.. وهذا هو السبب. انها تحب هذا العبث، حتى وهي كاملة الوعي.. أنها كالطفلة!"

واستطعت إذ ذاك أن أرى عينيه بجلاء. كانت أهدابه طويلة إلى درجة عجيبة، وكان جفناه هما الآخران مكسورين بشعيرات كثة، مقوسة، ذات شكل بديع. وكانت الهالات الزرقاء – تحت عينيه– تزيد من شحوب بشرته التي كانت تفتقر إلى الدم.. كما كانت تتخلل جبينه العريض تجعدات فوق الأنف، وقد توج هذا الجبين شعر كثيف، مجعد، ذو لون يضرب إلى الحمرة. ولا سبيل إلى وصف التعبير الذي كان يتجلى في عينيه اللتين كانتا تنمان عن يقظة وهدوء. وشعرت بأن من العسير أن احتمل تلك النظرة غير الآدمية التي كانت تنبعث منهما!.. وقلت أخيرا: "ساقاك.. ماذا بهما؟"

فبعث يده بالاسمال حتى خلصت من بينها ساقا ذاوية، بدت كعنق الكرنبة.. ورفعها بيده فوضعها على حافة الصندوق، وقال: "إنهما بهذا الشكل.. الساقان معا.. منذ أن ولدت!.. فهما لا تقويان على السير.. إنهما عديمتا الحياة.. هذا غاية ما في الأمر!"

– وماذا يوجد في هذه العلب؟

وأشرت إلى العلب المتراكمة على الأرفف، فأجاب: "إنها مجموعة الحيوان". ورفع ساقه بيده– كما لو كانت قطعة من خشب! – فدسها بين الأسمال في قاع الصندوق، ثم قال في ابتسامة رزينة، تنم عن مودة: "هل أريكها؟.. اطمئن، فإنك لم تر لها شبيها على الإطلاق". وبادر إلى رفع جسده قليلا بذراعيه اللتين امتازتا بطول ونحول غير عاديين. وجلس على حافة الصندوق، ثم شرع يرفع العلب عن الأرفف وناولني علبة أثر أخرى، وهو يقول: "حذرا.. لا تفتحها، وإلا جرت الحيوانات هاربة. قرب علبة من أذنك واستمع.. ماذا تسمع؟". فقربت إحدى العلب من أذني وأنصت، ثم قلت: "إن بداخلها شيئا يتحرك"

– آها!.. بها عنكبوت.. وغد!.. إن اسمه "الطبال".. قارع الطبل! وهو ذكي ماكر!

وأومضت عينا الطفل البديعتان بحيوية وحنان، بينما تراقصت على وجهه الشاحب ابتسامة، وهو ماض في رفع العلب عن الأرفف بيديه السريعتي الحركة. وكان يقربها إلى أذنه أولا، ثم إلى أذني، وهو يتحدث في تحمس: "أما هذا، فهو (أنيسيم) الصرصار.. إن له منظرا مهيبا كالجندي!.. وهذه ذبابة.. زوجة مفتش، وهي امرأة شريرة، إنها أسوأ النساء! فهي تطن طيلة النهار، وهي تنهر كل امرئ، وتشد أمي من شعرها.. لست أعني الذبابة طبعا، وإنما زوجة المفتش التي تشبهها.. ان

لمسكنها نوافذ تطل على الطريق. وهي لا تبدو الا كالذبابة!.. أما هذا، فصرصار أسود، هائل.. إنه "السيد". لا بأس به، ولكنه سكير، عديم الحياء. فهو إذا ثمل تسلل إلى ساحة الدار عاريا إلا من شعر كثيف، فكأنه كلب أسود!.. وهذه بقة اسمها "العم نيكوديم"، أمسكت بها في ساحة الدار.. إن "العم نيكوديم" من الحجاج الذين يتنقلون بين الأماكن المقدسة! وهو من الأشرار.. رغم أنه يزعم أنه يجمع الصدقات للكنيسة. إن أمي تدعوه "الغشاش". وهو عشيقها كذلك. إن لها من العشاق فوق ما تستطيع أن تحصى.. أنهم كثيرون كالذباب، رغم أنها بلا أنف!"

– ألا تضربك أمك؟

– تضربني؟.. إنك عبيط!.. إنها لا تستطيع العيش دوني، فهي طيبة القلب، وإن كانت سكيرة!.. على أن كل امرئ في شارعنا هذا سكير. وهي رشيقة، وخفيفة الروح أيضا.. لا يعيبها سوى إدمانها الشراب.. يا لها من مومس!! إنني لا أفتأ أقول لها: "كفي عن تجرع الفودكا أيتها الحمقاء.. فلو أنك أنصرفت عنها لغدوت غنية". ولكنها تضحك مني. إنها امرأة.. فلا عجب في أن تكون حمقاء!.. إلا أنها فتاة طيبة. حسنا، لسوف يفيقها النوم من سكرها، وسترى بنفسك"

وكانت ابتسامة ساحرة، تجعلك مشوقا إلى أن تئن عجزا عن احتمال نيران الاشفاق التي تكوي ضلوعك، أو عن أن تصرخ بصوت مدو تسمعه المدينة بأسرها. وكان رأسه الصغير الجميل يتأرجح على عنقه النحيل كزهرة

عجيبة، وعيناه تتألقان بتحمس مطرد، وترسلان وميضا اجتذبني بقوة لم أجد في وسعي مقاومة لها!

وفيما كنت أنصت إلى حديثه المؤلم- رغم سذاجته الصبيانية- نسيت لبرهة المكان الذي أجلس فيه. ولكنني سرعان ما فطنت إلى النافذة التي كانت تشبه الكوة، والتي كان الوحل يتناثر عليها من الخارج، وإلى المدفأة بفوهتها السوداء، وكومة الأسمال البالية المتراكمة في أحد الأركان، وجسد المرأة المستلقية على سرير تألف من كومة من الأسمال..جسد الأم.. الجسد الذي كان في صفرة الزبد!

وتساءل الصبي مزهوا: "هل أعجبك معرض الحيوان؟"

- إنه بديع جدا!

- ولكني لا أملك نخلة واحدة.. ولا فراشة كذلك

- ما أسمك؟

- لينكا.

- إنه اسمي أنا الآخر.

- أحقا؟.. ولكن.. أي نوع من الرجال أنت؟

- لست من أي نوع!

– آه، انك تكذب.. كل امرئ ينتمي إلى نوع معين.. على أن بوسعي أن أعرف.. إنك شاب طيب!

– ربما!

– آه، أن بوسعي أن أعرف.. إنك كذلك "قط هارب"!

– ما الذي يحملك على هذا الظن؟

– حسنا.. مجرد جلوسك معي هنا يعني أنك خائف من أن تعود إلى دارك في بهيم الليل.

– ولكن ضوء النهار انبثق بالفعل.

– إذن، فهل أنت تعتزم الانصراف؟

– لسوف أعود ثانية!

ولم يصدقني، بل غطى عينيه بأهدابه الطويلة.. وبعد فترة من الصمت سألني: "ولماذا؟"

– لماذا؟!.. لمجرد أن أراك.. إنك صبي لطيف، فهل تأذن لي في الحضور؟

فقال: "ان لكل امرئ الحق في المجيء إلى هنا!".. وتنهد، ثم أردف قائلا: "أنك تكذب"

– بل أقسم أن أجيء

– أجل، تعال لتزورني أنا، لا لتزور أمي ليخطفها الشيطان! لنصبح صديقين، أنا وأنت هه؟

– فليكن!

– حسنا.. لا يهم أن تكون كبيرا.. ما عمرك؟

– عشرون عاما.

– إنني في الحادية عشرة، وليس لي من أنداد ولا أصحاب، اللهم ألا "كانكا" ابنة السقاء.. إن أمها تضربها، لأنها تأتي لزيارتي.. هل أنت لص؟

– لا.. ولكن، لماذا تظنني لصا؟

– وجهك.. أنه فظيع.. جلد على عظم.. ثم إن لك أنفا كأنف اللص!.. هناك لصان يترددان علينا هنا، إحدهما– ويدعى اللص ساشكا– أحمق، غبي، سخيف.. أما الآخر– ويدعى فانيشكا– فطيب القلب.. في طيبة الكلب!.. هل لديك علب صغيرة؟

– سأحضر لك بعض العلب.

– ألا أفعل!.. ولن أنبئ أمي بأنك قادم.

– ولم لا تنبئها؟

– هكذا أرى.. إنها تسر دائما بمقدم الرجال. بل إن الفاجرة تحب الرجال!.. المسألة بسيطة.. أن أمي فتاة عجيبة، فهي مشغوفة بالرجال..

لقد استطاعت وهي في الخامسة عشرة أن تنجبني.. وهي نفسها لا تدري حتى الآن كيف حدث ذلك؟!.. ومتى ستأتي؟

– وفي مساء غد.

– في المساء؟.. إنها إذ ذاك ستكون سكرانة.. وماذا تراك تعمل ما دمت لست لصا؟

– أنني أبيع الجعة البارفارية.

– أحقا؟.. إذن فاحضر لي زجاجة.. هل تعدني؟

– بالتأكيد. سأحضر لك زجاجة. والآن، لابد لي من الانصراف.

– إذن فأسرع.. هل ستأتي؟

– بلا شك.

ومد يديه الطويلتين معا نحوي، فضغطت العظام النحيلة الباردة، وهززتها، ثم صعدت الدرجات المفضية إلى ساحة الدار، دن أن التفت خلفي، وخرجت أترنح كالسكران..

وكان الفجر قد بزغ.. وفوق عدد من البنايات التي كانت الرطوبة تلفها بغلالة تجعلها لا تبدو واضحة، كان كوكب الزهراء يرتجف وهو يغرب!.. ومن ثغرة في أسفل جدار البيت، كانت ألواح نافذة الغرفة تحملق في بعيون مربعة، معتمة، ملطخة، كعيون السكارى!.. وكان ثمة فلاح أحمر الوجه ينام على عربة بجوار الباب الخارجي، وقد باعد ما بين قدميه

العاريتين الضخمتين، واشرأبت لحيته الكثة المهوشة نحو السماء، وبدت أسنانه- خلال فمه الفاغر- ناصعة، لامعة.. وخيل إلى أن الفلاح كان يضحك ساخرا، وهو مغمض العينين!.. وتطلعت إلى كلب هرم تتوسط ظهره بقعة عارية من الشعر، لعلها أثر ماء ساخن سكب عليه.. وتشمم رجلي، ثم زام في رفق وجوع، فملأ قلبي رثاء له، وكانت سماء الصباح- التي شاع في شحوبها لون وردي- تنعكس على صفحات البرك المائية الراكدة، فإذا هذه الانعكاسات تضفي على البرك القذرة جمالا لا داعي له.. جمالا وقحا يؤذي النفس ويعكر صفاءها!

وفي اليوم التالي سألت صبية البيت الذي أقيم فيه أن يصيدوا لي بعض البق والفراش، ثم ابتعت عددا من العلب الصغيرة الجميلة من مخزن للأدوية، وذهبت لزيارة "لينكا" حاملا زجاجتين من الجعة، وبعض الخبز المخلوط بالزنجبيل وبعض الحلوى والفطائر. وتقبل لينكا هداياي في عجب بالغ، وقد فتح عينيه الجميلتين على سعتهما.. وكانتا تبدوان في ضوء النهار أبدع وأجمل مما كانتا في الليل!

وراح يصيح في صوت خفيض، لا يمت إلى الطفولة: "آه، آه، آه! ما أبدع الأشياء التي أحضرتها! أغني أنت؟.. ولكن، كيف يتسق أن تكون غنيا، وأن تكون رث الثياب.. ومع ذلك فأنت تقول أنك لست لصا!.. ثم، ما أبدع هذه العلب الصغيرة!.. آه، آه، آه!.. إنني لأخجل من أن أمسها، فإن يدي غير نظيفتين.. "من" الذي في هذه العلبة؟.. آها.. هذه

بقة!.. إن لونها يبدو كلون النحاس الذي يعلوه صدأ أخضر.. يا لك من شيطانة!.. وهل تراها ستجري وتطير هاربة!.. رحماك يا رب!"

وفجأة، صاح في طرب: "أماه.. اهبطي وتعالى فاغسلي يدي.. وانظري أيتها البطة إلى ما أحضره لي!.. إنه نفس الشاب الذي جرك إلى هنا الليلة الماضية، وكأنه شرطي.. إنه نفس الفتى!..وهو الآخر يدعي لينكا!".. فسمعت من خلفي صوتا غريبا، منخفضا، يقول: "يجب عليك أن تشكره".. فهز الصبي رأسه بسرعة، وقال: "شكرا لك.. أشكرك!".. وكانت تتطاير في فضاء الغرفة عاصفة كثيفة من غبار تصاعد من الأسمال القديمة.. واستطعت بعناء أن أبصر خلال هذه العاصفة رأسا مشعثا، ووجها مشوها لامرأة.. ولمعان أسنانها وهي تبتسم ابتسامة طبيعية لا تفارقها، ولا تغيب عن محياها!

وقلت: "كيف حالك؟"، فردت قائلة: "كيف حالك أنت؟".. وبدا صوتها المنبعث من أنفها مبحوحا، ولكنه كان مرحا، كما كان الكثير من السخرية. وكان لينكا في تلك الاثناء قد أقبل على خبز الزنجبيل يقضمه، ويهمهم لنفسه وقد نسي وجودي، وانصرف يفتح العلب الصغيرة في حذر، لتفقد ما كان بها. وكانت أهدابه الطويلة تلقي على خديه ظلالا، وتضاعف من دكنة الهالات التي كانت تحيط بعينيه. وأطلت الشمس خلال زجاج النافذة القذر، فبدت كئيبة كوجه رجل مكتهل.. وسقط شعاع متأرجح على شعر الصبي الأحمر– وكان قميصه مفتوحا– فكشف عن

صدره.. واستطعت ان أرى قلبه يخفق بعنف خلف عظامه الرقيقة، فيرفع الجلد الشاحب، وحلمة ثديه الصغيرة، وكانت أمه فوق المدفأة، فما لبثت أن هبطت، فبللت طرف منشفة في الحوض، ثم أقبلت على لينكا فتناولت يده اليسرى. وإذ ذاك صاح الصبي: "لقد هربت!.. أمسكا بها!.. لقد هربت!". وبدأ ينبش الصندوق بكل جسمه، فألقى بالأسمال الكريهة الرائحة جانبا، وكشف بذلك عن ساقيه العاجزتين الزرقاوين.. وانفجرت المرأة ضاحكة وهي تفتش بين الأسمال، وصاحت بدورها: "امسك بها!"... بينما قال ابنها يحذرها في حزم: "حذار.. لا تسحقيها!.. لقد جلست أمي مرة على معرضي- وهي ثملة- فقضت على عدد كبير من حيواناتي!".. فقالت أمه في رفق: "هلا نسيت هذا الحادث يا عزيزي؟"

- لقد اضطررت إلى أن أقوم بمجهود شاق لدفنها!

- أو لم أصطاد لك سواها فيما بعد؟

- سواها!.. إن التي قضيت عليها كانت مدربة، أيتها الرعناء!.. لقد دفنت الضحايا تحت موقد المدفأة.. زحفت إلى هناك، وتوليت دفنها!.. أه عندي مقبرة تحت المدفأة.. أتعرف ذلك؟.. لقد كان عندي عنكبوت يدعى "مينكا"، كان جد شبيه بأحد عشاق أمي.. شاب مرح، بدين، يقيم الآن في السجن!

فهتفت المرأة وهي تتخلل شعر ابنها المجعد بأصابع قصيرة، غليظة، سمراء: "أواه، يا حبيبي الغالي!".. ثم لكزتني بمرفقها وقالت وقد تهللت عيناها بالابتسام: "ما أبدع ابني الصغير هذا!.. انظر إلى هاتين العينين.. ألا

تراه جميلا؟". فقال لينكا وهو يبتسم منصرفا إلى فحص بقة: "في وسعك أن تأخذي إحدى عيني، على أن تهبيني في مقابلها ساقين!".. ثم هتف وهو ماض في فحص الحشرة: "إنها قوية.. كأنها خلقت من حديد.. ما اسمها! ألا ترين يا أماه أنها تشبه الراهب.. ذلك الراهب الذي صنعت له السلم يوما.. هل تذكرينه؟"

فقالت المرأة: "اذكره ولا ريب"، ثم التفتت نحوي ضاحكة، وأخذت تقول: "حدث يوما أن هبط علينا هنا راهب بدين، وقال: "اسمعي.. إنك تجمعين الأسمال البالية، فهل لك في أن تجدي لي منها سلما من حبال؟".. وما كنت قد سمعت من قبل عن سلم من هذا النوع، فقلت له: "لا.. لا أستطيع". ولكنه قال: "إذن، فسأعلمك". وفتح صدر مسوحه، فإذا بحبل طويل متين رفيع ملتف حول بطنه. وعلمني.. ورحت أجدل الأسمال البالية، وأزيد في جدلها مرارا، وأنا أعجب في نفسي مما يدعوه إلى طلب مثل هذا السلم. ووسوست لي نفسي بأنه كان يريد أن يستخدمه في السطو على إحدى الكنائس!"

وقهقهت المرأة بصوت عال وهي تشد ذراعها حول كتفي ابنها، وتربت ظهره طيلة الوقت. ثم استطردت قائلة: "آه.. ما أمكر هؤلاء الرهبان!.. وجاء صاحبنا في الموعد الذي حدده، فدفعت إليه بالسلم قائلة: "هاك، ولكن.. إذا كنت ستستخدمه في السرقة، فلا وزر علي!"، وإذ ذاك ضحك بخبث وقال: "لا.. انما هو لتسلق جدار. فإن حول الدير

سياج مرتفع من الطوب. ونحن قوم ميالون للخطيئة.. والخطيئة تقع في الجانب الآخر للسياج.. فهل فهمت؟"... وفهمت بالطبع!.. كان في حاجة إلى السلم ليتسلل من الدير تحت جنح الظلام، ويسعى إلى النساء.. لكم ضحكت واياه من هذه الحيلة!"

فقال الصبي في لهجة الكبار:"حقا.. إنك لتحبين الضحك بالتأكيد. ولكن، يحسن بك أن تضعي الإبريق على النار"

– ولكنا لا نملك شيئا من السكر!

– ابتاعي قدرا منه.

– ولكنا لا نملك نقودا!

– ما هذا ألا إنك سكيرة لا ترتوين من الخمر.. خدي بعض النقود منه!

والتفت نحوي متسائلا: "هل معك نقود؟". فأعطيت المرأة مبلغا من المال. وإذ ذاك قفزت مستوية على قدميها، فتناولت من فوق المدفأة أبريقا صغيرا مشوه الشكل، ثم اختفت من الغرفة وهي تهمهم خلال أنفها بأغنية. وصاح ابنها يلاحقها بصوته: "أماه! أغلقي النافذة فإنني لا أقوى على أن أرى شيئا!.. يالك من كسول صغيرة، لا تجيدين سوى العبث" ثم عاد يرتب علب الحشرات على الأرفف بعناية. وكانت الأرفف مصنوعة من الورق المقوي، ومعلقة في الهواء– بجوار الجدار– بخيوط مشدودة إلى مسامير دقت بين أحجار الجدار الرطب..

وما لبث الصبي أن عاد يقول: "الحق أنها مجتهدة وهي إذا شرعت في ندف الأسمال المهلهلة، أثارت غبارا يكاد لكثافته أن يخنقني، فأصيح بها: "أماه، احمليني إلى ساحة الدار وإلا اختنقت!"، ولكنها تقول: "تجلد واصبر.. أنني في بعادك أغدو وحيدة!".. أنها تحبني، وهذا كل ما في الأمر.. وهي تجمع الأسمال وتغني.. فهي تعرف ألف أغنية!".. وتملكه التحمس، فأخذت عيناه البديعتان تتألقان، ورفع حاجبيه الكثيفتين، وأنشد في صوت عال، خشن: "آرينا ترقد على فراش من الريش الناعم.."

وأصخت السمع برهة، ثم قلت له: "هذه أغنية بذيئة جدا".. فقال مؤمنا على حكمي: "كل أغانيها على هذا الغرار". ثم أرهف أذنيه فجأة، وهتف: "أنصت هذه هي الموسيقى!.. ارفعني بسرعة!". ورفعت عظامه الدقيقة الخفيفة التي كانت بشرته الرقيقة الداكنة كالكيس بالنسبة لها، وإذا به يدس رأسه ملهوفا خلال النافذة فيطل على الخارج.. وكف عن الحركة، بينما كانت ساقاه الذاويتان تتأرجحان وتحتكان بالحائط، وكأنهما ليس منه!.. وكان ثمة أرغن متنقل يدور في ساحات الدار، مرسلا أنغاما متقطعة من أحد الألحان، في صوت عال يثير الأعصاب. وصاح طفل ذو صوت عميق، وقد استخفه الطرب ونبح كلب أما لينكا فقد راح يصغي إلى الموسيقى وهو يغمغم باللحن بصوت خفيض مصاحبا الأرغن في توقيعه!

* * *

وكان الغبار الذي يملأ جو الغرفة قد هدأ واستقر، فازداد الضوء في المكان. وكانت ثمة ساعة حائط رخيصة مثبتة إلى الجدار فوق سرير الأم، وقد أخذ بندولها الصغير يزحف في تراخ.. وعلى رف المدفأة، كانت الأطباق تتناثر وهي محتفظة بقذارتها.. وكانت ثمة طبقة من التراب تكسو كل شيء، وتتكاثف في الأركان– بوجه خاص– حيث كانت العناكب تتعلق بأستار قذرة من نسجها. كان مسكن لينكا أشبه الأشياء بحفرة لجمع الفضلات– أي "مقلب الزبالة"– وكان الفقر المدقع يطل ببشاعته من كل شبر فيها، فيخنق المشاعر في النفس!

وبدأ ابريق الشاي يرسل أزيزا كئيبا، وقد أخذ بخار الماء يبحث لنفسه عن منفث.. وارتفع صوت أجش في ساحة الدار صائحا: "اخرج!"، فإذا الأرغن يسكت فجأة!.. وإذ ذاك تنهد لينكا وقال: "أعدني حيث كنت.. لقد طردوهم!"

وأجلسته في الصندوق، فتجهم وجهه، وراح يدلك صدره بيديه، ويحاول أن يكتم سعالا انتابه. ثم قال: "إن صدري يؤلمني.. ليس من الخير في شيء أن أستنشق الهواء الطلق طويلا.. ألا قل لي: "هل رأيت العفاريت يوما؟"

فأجبت مأخوذا: "كلا"

– ولا أنا!.. إنني أظل أرقب المدفأة في الليل عسى أن يظهر لي واحد منها، ولكنها لا تظهر.. أليست هناك أشباح في المقابر؟

– وما حاجتك إلى أن ترى أشباحا؟

– إنها مخلوقات مثيرة للعجب.. ثم، ألا يحتمل أن أصادف عفريتا طيبا بينها؟!.. لقد رأت "كاتكا"– ابنة السقا– عفريتا صغيرا في مخزن ذات يوم، ولكنها ذعرت منه. أما أنا فلست أرهب الأشياء المخيفة!

ولف ساقيه في الأسمال البالية، ثم قال مسترسلا وراء أفكاره: "بل إنني أحب الأحلام المخيفة في الواقع. ولقد رأيت في أحلامي مرة، شجرة تنمو في وضع عكسي، فكانت الأوراق على الأرض، والجذور متجهة نحو السماء. وغرقت في العرق، واستيقظت لفرط الرعب!.. ورأيت أمي مرة ترقد عارية، وقد جثم على صدرها كلب ينهش أحشاءها.. وكان كلما قضم قطعة بصقها، وعاد ليقضم سواها ثم يبصقها!.. وفي مرة أخرى، رأيت في الحلم أن بيتنا قد انتفض وتحرك من مكانه، وشرع يسير في الشارع منزلقا بينما كانت مصاريع الأبواب والنوافذ تصطفق.. وكان قط زوجة المفتش يجري وراءه!". وأحنى الطفل كتفيه الصغيرتين، وكأنما سرت في جسده قشعريرة، ثم تناول قطعة من الحلوى، ففض عنها الغلاف الورقي الملون، وسواه في عناية، ثم وضعه على حافة النافذة، وقال:

– لسوف أصنع من هذه الغلافات شيئا بديعا.. أو لأعطها لكاتكا، فإنها– هي الأخرى– تحب الأشياء الطريفة.. كقطع الزجاج، وبقايا الخزف المهشم، والورق، وما إلى ذلك. والآن، قل لي.. هل يكبر الصرصار إذا عنيت بتغذيته ويصبح في حجم الفرس؟!

وكان من الواضح أنه يؤمن بهذه الفكرة، فرأيت أن أجاريه. ومن ثم قلت: "أجل.. إذا أنت أحسنت تغذيته!". فصاح في طرب وابتهاج: "بالطبع!.. ولكن أمي الحمقاء تضحك مني!". وأردف ناطقا بكلمة بذيئة يصف بها المرأة، ثم استطرد قائلا: "إنها غبية!.. والقط، هل إذا غذيته ليصبح في حجم الفرس، استغرق ذلك وقتا طويلا؟".. فقلت: "لا.. من المحتمل أن لا يستغرق ذلك زمنا يذكر!"

– من المؤلم حقا أنني لا أمتلك غذاء كافيا.. لعمري، إنه لعمل عظيم!

وأخذ يرتجف لفرط الانفعال، وهو يضغط صدره بيده. ثم قال: "لو تسنى ذلك، لوجدت ذبابات في حجم الكلب!.. ولأمكن استخدام الصراصير في جر قوالب الطوب.لابد أن تكون قوية إذا ما صارت في حجم الخيل.. هه؟"

– ولكن لا تنس أن لها شوارب!

– لا ضير في ذلك.. إن الشوارب تصلح أعنة لقيادة الصراصير إذ ذاك!.. وكذلك من الممكن أن تصبح عندنا عناكب عائلة، في حجم.. ماذا؟.. عنكبوت في حجم الدجاجة مثلا.. شكله في هذا الحجم يكون مخيفا!.. آه، لو كانت لي ساقان!.. إنني إذ ذاك كنت أجد وأعمل لكي أغذي كل "حيواناتي"، ثم أتكسب من عرضها، وأبتاع دارا لأمي في الحقول الخضراء.. هل ذهبت مرة إلى الحقول الخضراء؟

- بالتأكيد

- هل لك أن تحدثني عنها؟

وشرعت أحدثه عن الحقول والمروج، فراح يصغي في لهفة دون أن يقاطعني، وقد أسبل أهدافه على عينيه، وأخذ فمه ينفرج في بطء، وكأنما أخذته سنة من نعاس!.. وتحولت أخفض من صوتي- حين رأيت ذلك- ولكن أمه ما لبثت أن أقبلت، فأمسكت بالابريق، الذي كان ماؤه يغلي، في إحدى يديها.. وكانت تحمل في اليد الأخرى كيسا من الورق، بينما دست بين ياقة ثوبها ونهديها زجاجة من الفودكا.. وهتفت: "ها أنا ذي!"

وتنهد الصبي، وفتح عينيه قائلا: "إنني أحب الأماكن التي تصفها.. أماكن خالية، ألا من الأعشاب والزهور؟.. لماذا لا تستأجرين عربة وتأخذينني إلى الحقول الخضراء؟.. إنني بحياتي هذه لن ألبث أن أذوى وأموت، دون أن أراها.. لعمري يا أماه، إنك لمومس!".. وكانت لهجته قد ازدادت تثاقلا بالحزن والأسى. فزجرته أمه في حنان قائلة: "لا تسب.. يجب أن لا تسب، فإنك لا تزال صغيرا!"

فصاح فيها: "لا تسب!.. هذا كل ما تملكينه لي.. أنه سهل عليك. إنك تذهبين أينما تشائين، كالكلب الهائم".. ثم ألتفت نحوي قائلا: "إنك لمحظوظ حقا.. أسمع.. هل الحقول الخضراء من صنع الله؟".. فقلت: "بلا شك!"

- ولماذا؟.. لأي غرض صنعها؟

– حتى يستطيع الناس أن يخرجوا إليها ليروحوا عن أنفسهم!

فابتسم الصبي وهو مستغرق في التفكير، ثم تنهد وقال: "الحقول الخضراء!.. إنني لو استطعت أن أقيم هناك، لسرحت فيها معرضي.. لأطلقت "حيواناتي" فيها، وقلت لها: هيا يا أخوتي، أهرعوا حيث شئتم!.. أسمع، أين يصنعون الله.. أفي ملاجئ الفقراء؟".. وضجت أمه بضحك عال، واستلقت على الفراش وهي تصرخ وتركل الهواء بساقيها صائحة: "رحماك يا الله!.. ماذا.. ما هذا يا عزيزي؟.. إنما يصنعه رسامو الايقونات!.. أعذره فإن أفقه محدود!.. وتطلع إليها مبتسما، ثم رماها بلفظ من ألفاظه البذيئة، في مداعبة حنون، وقال: "إنها تتصرف كالطفل.. فهي تحب الضحك".. وعاد يكرر السبة البذيئة، فقلت له: "دعها تضحك.. هل يضيرك هذا؟".. فأقرني قائلا: "لا، لا يضيرني.. إنما أغضب منها عندما تهمل تنظيف النافذة.. إنني أرجوها مرارا وتكرارا أن تنظف النافذة، لأنني لا أستطيع أن أرى نور الله.. ولكنها تمعن في النسيان!"

وأخذت المرأة تنظف أقداح الشاي، وهي تضحك من آن لآخر، وتغمرني بعينيها ذات الزرقة الخفيفة، وتقول: "ألا ترى أن لي أبنا جميلا حبيبا؟.. لولاه، لكنت قد أغرقت نفسي منذ زمن طويل.. أقسم لك على صدق هذا.. لولاه لشنقت نفسي!"

وكانت تبتسم وهي تقول هذا. وبغتة، سألني لينكا: "أفأنت أحمق؟"

– لست أدرى. لماذا؟

– لأن أمي تقول أنك أحمق!

وصاحب المرأة في غير حرج أو ارتباك: "ولكنك لم تذكر السبب في أنني قلت هذا.. لقد تجشم عناء إحضار امرأة ثملة من الطريق، فأسلمها إلى فراشها، ثم تركها وانصرف.. هذا كل ما في الأمر، وما قصدت أية أساءة.. ومع ذلك كيف تسول لك نفسك أن تشي بي، أيها الوضيع؟!".. كانت تتكلم وكأنها هي الأخرى صغيرة، فقد كانت لهجتها وأسلوبها كلهجة وأسلوب فتاة في العقد الثاني من عمرها. وكان في عينيها صفاء الفتيات أيضا، مما جعل وجهها– بأنفه الأفطس، وشفته المشقوقة، وأسنانه المكشوفة– يزداد قبحا.. كان وجهها ينبسط دائما في ابتسامة قبيحة، ولكنها كانت ابتسامة مرحة طروب!

* * *

وقالت أخيرا في جد: "لنتناول الشاي". وحملت الابريق إلى الصندوق المجاور للينكا، فمس البخار المنبعث من تحت غطاء الابريق كتف الصبي، وإذ ذاك وضع يده الصغيرة فوق البخار، حتى إذا ابتل كفه مسح به على شعره، وهو يسبل أجفانه في هدوء حالم. وما لبث أن قال: "ستصنع لي أمي– عندما أكبر– عربة أزحف بها في الطرقات لأجمع الصدقات. فإذا ما جاد الناس علي بما يكفي، فسأزحف مغادرا المدينة إلى الحقول الخضراء!". وإذ ذاك تنهدت أمه، وهتفت: "هو– هو!". ثم

ضحكت في لطف وقالت: "إن الريف يبدو له كالجنة.. ولكن، ماذا تجد في الريف؟.. معسكرات، وجنودا قساة، وفلاحين سكارى!"

وإذا ذاك قاطعها لينكا وهو يصيح عابسا: "إنك تكذبين.. سليه عن الريف، فقد رآه".. وأشار نحوي.. فقالت أمه: "وأنا؟.. أفلم أره أنا الأخرى؟"

– أجل.. رأيته وأنت ثملة!

وشرعا يتجادلان طفلين، في حرارة، ودون منطق. وفي تلك الأثناء، كان المساء قد غشى ساحة الدار، وانتشرت في السماء سحابة راكدة تسري خلالها آثار حمرة الشفق. وازداد الظلام في الحجرة المنزوية تحت سطح الأرض.

واحتسى الصبي قدح الشاي، ثم أخذ العرق يتفصد منه. ونظر نحوي، ثم نظر إلى أمه وقال: "لقد أكلت، ولقد شربت.. ولقد آن لي الآن أن أنام!"، فقالت أمه محبذة: "أجل.. نم!".. فأشار نحوي قائلا: "وهو.. هل سينصرف؟".. ثم ألتفت إلي متسائلا: "هل ستنصرف؟". فأجابته المرأة وهي تلكزني بركبتيها: "لا تشغل بالك.. لن أدعه ينصرف!"

فقال لينكا في رجاء: "لا تذهب!". ثم أغمض عينيه، وتمطى باسطا جسمه، وغاص في الصندوق. ولكنه ما لبث أن رفع رأسه فجأة وقال لأمه معاتبا: "لم لا تتزوجينه؟.. لم لا تتزوجين كبقية النساء؟.. إنك بهذا تصبحين مثل غيرك من الناس.. إنك لا تلقين منهم سوى الضرب، أما هذا..

فشاب طيب!". وقالت الأم في هدوء، وهي تنحني على قدح الشاي: "صه!.. استسلم للنعاس!".. ولكن الصبي عاد يقول في صوت ناعس: "إنه غني!"

وظلت المرأة صامتة فترة من الزمن، وهي تحتسي الشاي بشفتيها المشوهتين. ولكنها لم تلبث أن التفتت نحوي قائلة، وكأننا على تعارف منذ زمن بعيد: "هكذا نعيش في هدوء- أنا وهو- ولا شريك لنا. إن بقية السكان في ساحة الدار يهينونني وينعتونني بأنني امرأة ساقطة. والحق أنني لا أخجل من ذلك!.. ثم إنك ترى مدى حاجتي.. ومدى حظي من التشوه، فليس هناك من يرغب في غير جسدي. آه.. لقد نام ابني الحبيب.. ألا تراه طفلا طيبا؟"

– حقا.. ما أطيبه!

– إنني لا أملك أن أفيه حقه من الرعاية.. ويا للعقل الذي أوتيه!

– أجل.. إنه صبي موفور الذكاء!

– هذا صحيح.. لقد كان أبوه من السادة، وكان كبير السن.. كان من أوائك الذين يسمونهم.. لست أدرى.. أولئك الذين ينشئون مكاتب لأنفسهم.. يا ألهي!.. لست أذكر الاسم.. إن عملهم ينحصر في الأوراق..

– لعلك تعنين أنه كان مسجلا للعقود؟

– أجل، هذا هو.. وكان شيخا لطيفا، رحيما.. أحبني.. وكنت خادمة في الدار!

* * *

وغطت ساقي ابنها العاريتين ببعض الأسمال، وسوت الوسادة تحت رأسه، ثم استأنفت الحديث في لهجة مسترخية: "ولكنه لم يلبث أن مات فجأة.. كان ذلك أثناء الليل، وكنت قد فارقته لتوي، فإذا به يهوي إلى الأرض.. وكانت تلك خاتمة حياته!.. ولكن، أتبيع الجعة حقا؟"..

قلت: "نعم!"

– وهل المتجر ملك لك؟

– لا، وإنما أعمل أجيرا!

فازدادت التصاقا بي، وهي تقول: "لا تشمخ بأنفك وتصد عني أيها الشاب. إنك لن تصاب بمرض مني، فقد شفيت.. سل أي مخلوق في الشارع، فكلهم يعرفون!"

– ولكني لا أترفع أو أصد عنك!

وألقت راحتها الصغيرة على ركبتي، فرأيت آثار العمل والكد على بشرتها، وفي أظفارها المحطمة. واستطردت تقول في ود وحرارة: "إنني شاكرة لك ما قدمت للينكا. لقد كان اليوم عيدا بالنسبة له"..

فقلت: "لقد آن لي أن أنصرف"..

ولكنها تساءلت مذهولة: "وإلى أين؟"

– لدي مهام أريد أن أنجزها.

– بل أمكث!

– لا أستطيع.

ونظرت نحو ابنها، ثم نحو النافذة، وتأملت السماء، وما لبثت أن قالت في صوت خافت: "ألا أمكث.. سأغطي وجهي المشوه بمنديل. إنما أريد أن أبدي لك شكري لما أوليت ابني.. سأغطي وجهي.. هه؟"

وكانت تتكلم في اغراء، وفي شعور حار، وود صادق.. وكانت عيناها– عينا الطفل في وجه مشوه– تتألقان بابتسامة لا أثر للتسول أو الطمع فيها.. ابتسامة شخص غني، يريد أن يعرب عن عرفانه للجميل، فيقدم من ثروته جزءا عينيا لقاء الصنيع!

وصاح الصبي فجأة وهو يرفع جسده عن مرقده، مجفلا: "أماه.. إنهم يزحفون يا أماه!.. تعالي!" فهمست وهي تنحني عليه في حنو: "إنه يحلم"..

وتسللت أنا إلى ساحة الدار، فوقفت فيها مستغرقا في التفكير. وتناهى إلى أذني– من نافذة الغرفة– صوت ينبعث من الأنف، مرددا إحدى الأغاني في صوت طروب.. وكانت الأم تغني لأبنها أغنية غريبة كي ينام: لسوف تفد العواطف المشبوبة فتجلب..

كل لون من ألوان الشقاء..

والمتاعب التي تشتت الفكر..

وتمزق القلب أربا!

فيا للمتاعب والحزن والهم!

وأين ترانا نختفي منها.. آه، أين؟

وأسرعت مبتعدا عن ساحة الدار، وأنا أضغط أسناني حتى لا أنفجر باكيا!

رجل ضائع!

بينما كنت أرسل البصر خلال الصحيفة، وقعت عيناي على اسم "كونوفالوف"، فإذا به يستولي توا على انتباهي، وهذا نص ما قرأت:

"حدث في الليلة الماضية، أن رجلا من ماروم في الأربعين من عمره، يدعى "الكسندر ايفانوفيتش كونوفالوف"، شنق نفسه في الزنزانة رقم ٣ بالسجن المحلي، بحبل تدلى من مقبض لولب المدخنة. وكان المنتحر قد اعتقل في بسكوف، حيث كان يهيم متشردا، وأعيد إلى المدينة وقد أكدت سلطات السجن أنه كان هادئا، وديعا، مسالما، دائم التفكير. ويعزى انتحاره، وفقا لتقرير طبيب السجن، إلى مرض "الملانخوليا".. أي "الاكتئاب السوداوي"!

وشعرت- وأنا أقرأ هذا النبأ المقتضب- أن بوسعي أن ألقي مزيدا من الأضواء على الأسباب التي كانت خليقة لأن تغري هذا الرجل الهادئ، المفكر، على أن يعجل بنهاية حياته! فقد كنت أعرفه.. ولعله كان واجبا علي أن أفضي بما عندي، إذ كان رجلا رائعا، لا يلتقي المرء بكثيرين مثله في هذه الدنيا!

كنت في الثامنة عشرة عندما تعرفت إلى "كونوفالوف". وكنت في ذلك الوقت أعمل كمساعد للخباز في أحد المخابز. وكان الخباز جنديا

مسرحا من "كتيبة الموسيقى"، بدينا، سكيرا، كثيرا ما أتلف العجين!.. وكان إذا ثمل عزف بشفتيه ألحانا، أو وقعها بأصابعه على أي شيء يجده في متناوله. فإذا ثار عليه صاحب المخبز لإتلافه الخبز أو عدم اعداده قبل الصباح، هاج حنقه.. فكان يسب صاحب المخبز في وجهه، ويحاول أن يجعله يتبين أنه يتحدث إلى رجل فنان (موسيقي)! وكان يصيح وشاربه الأحمر الطويل ينتصب في الهواء وشفتاه الرطبتان السميكتان تصطفقان بصوت عال: "أتلفت العجين!.. أحرقت الخبز!.. لم أنضجه جيدا!.. إلى الجحيم أيها الضبع الأحول! أو تظن أنني خلقت لمثل هذا العمل؟.. إلى الجحيم أنت وعملك! إنني موسيقي، وخليق بي أن أعرفك مقامي.. كنت إذا أسرف عازف "الفيولا" في الشراب، توليت العزف على "الفيولا" بدلا منه.. وإذا ألقي القبض على عازف المزمار، عزفت على المزمار.. وإذا مرض عازف "الكورنيت" فمن تراه كان يحل محله؟.. أنا! تم- تار- تم- تم! واه لط أيها التعس!.. إنني راحل عن مخبزك!"

وكان صاحب المخبز رجلا منتفخ البطن، مترهلا، ذا ساقين قصيرتين سمينتين، ووجه نسوي، وعينين متقلبتي اللون.. وكان يدق الأرض بقدمه، فيهتز بطنه، وهو يصرخ "أيها اللص!.. أيها القاتل أيها الغادر يا يهوذا بائع المسيح!"، ثم يرفع يديه فوق رأسه وقد انفرجت أصابعهما القصيرة، ويمضي في الصراخ بصوت أكثر ارتفاعا: "وماذا يكون من أمرك إذا أسلمتك إلى الشرطة بوصفك متمردا؟".. فيصرخ فيه الجندي السابق

قائلا: "أتسلمني للشرطة وأنا خادم القيصر والبلاد؟" ثم يتقدم نحو صاحب المخبز في بطء، وهو يضم قبضتيه، فيتراجع صاحب المخبز ويروح يتجشأ ويبصق في سورة الغضب.. وما كان يملك أن يفعل غير ذلك، إذ أن الخبازين المهرة ما كانوا ليقيموا في تلك المدينة من مدن حوض نهر الفولجا، في فصل الصيف.

وكانت أمثال هذه المشاجرات تحدث في كل يوم تقريبا، إذ كان الجندي يثمل، ويتلف العجين، ويعزف "المارشات" العسكرية والألحان الراقصة.. أو "النمر"، كما كان يدعوها!.. وكان صاحب المخبز يصر على أسنانه، بينما كنت أضطر – من ناحيتي – إلى أن أقوم بعمل الاثنين!.. ولهذا كنت جد مغتبطا عندما وقع الشجار التالي بين صاحب المخبز والجندي. فقد قال الأول وهو يدخل المخبز مشرق الوجه، تلوح في عينيه نظرة الظفر: "حسنا أيها الجندي.. ضم شفتيك وأعزف لنا لحنا عسكريا!". فتساءل الجندي في تحفز وهو مستلق على المعجن، مخمورا كالعادة: "ما هذا؟". فقال المخدوم منشيا: "أستعد للقيام برحلة!" وقال الجندي وهو دلي ساقيه من فوق حافة مجلسه، وقد اشتم وراء الأمر شيئا: "إلى أين؟"

– أينما تشاء!

فصرخ قائلا: "ما الذي تعنيه؟"

– أعني أنني لن أستبقيك بعد الآن خذ أجرك، وإلى الأمام سر، على أركان الأرض الأربعة!

وإذا الجندي الذي اعتاد أن يتواقح على مخدومه– لأنه كان واثقا من أنه لن يستغنى عنه!– يفيق عند هذا القول.. فقد كان يدرك تمام الادراك أن من العسير على امرئ ليس له من المعرفة بالحرفة سوى القدر اليسير الذي أوتيه هو، أن يجد عملا آخر.. ومن ثم قال في قلق وهو يحاول أن يستوي على قدميه: "دعك من المزاح!"

– هيا، سر.. أمش!

– أمشي؟!

– أخرج!

فقال الجندي وهو يهز رأسه منحسرا: "انك استفدت حاجتك مني، ها؟.. امتصصت دمي.. جعلتني حطاما ناشفا، والآن تريد أن ترميني؟.. عيب عليك أيها العنكبوت!".. فصاح صاحب المخبز مهتاجا: "أأنا عنكبوت؟".. فقال الجندي مؤكدا: "أجل.. انك عنكبوت مصاص للدماء.. هكذا أنت!".. وسار مترنحا إلى الباب، فأرسل صاحب المخبز ضحكة بغيضة وهو يرقبه أثناء انصرافه. وتبدى بريق مبتهج في عينيه، ثم قال في أعقابه: "حاول أن تعثر على امرئ يستأجرك بعد اليوم!.. لن يقبلك أحد، ولو بغير أجر، بعد الذي قلته لهم عنك.. لا أحد سيقبلك!"

وسألته:"هل وجدت خبازا جديدا؟"

– إنه خباز قديم، وكان مساعدي يوما.. ويا له من رجل!.. إنه يساوي وزنه ذهبا.. ولكنه سكير هو الآخر! على أنه لا يثمل إلا في أوقات ينتابه فيها الخبل.. فهو يعمل كالثور لثلاثة أشهر أو أربعة، لا يحفل بنوم أو براحة أو بأجر.. يكفيه أن يعمل وأن يغني، فإذا غني نفذ غناؤه إلى قلبك مباشرة.. وإذا شبع من الغناء، أقبل على الشراب!

وتنهد صاحب العمل، ثم لوح بيده في يأس، وقال: "ولن توقفه الخيول الجامحة إذا ما شرع في احتساء الخمر، فيظل يشرب حتى يسقط سقيما أو يتعرى من ثيابه.. وإذ ذاك يتسلل هاربا،كروح شريرة مسها عبير البخور! ولعل السبب في ذلك أنه يشعر بالخزي والاستحياء.. ولكن، ها هو ذا.. هل استقر رأيك على المجيء نهائيا يا ساشا؟"

فانبعث عند المدخل صوت عميق، غني النبرات: "نهائيا!"

وهناك– عند الباب– وقف رجل في نحو الثلاثين من عمره، طويل القامة، عريض المنكبين، وقد اعتمد بكتفه إلى حافة الباب. وكانت ثيابه تدل على أنه جواب آفاق، بينما كان وجهه ينم على أنه سلافي قح!.. وكان يرتدي قميصا أحمر رخيصا، مهلهلا، بلغ من الاتساخ درجة لا يتصورها العقل.. وسروالا من تيل خشن. وكانت إحدى قدميه في بقايا خف من المطاط، بينما كانت قدمه الأخرى في حذاء جلدي ممزق.وكان شعره الأشقر مهوشا وقد علقت به أعواد من القش، كما علقت أعواد أخرى بلحيته الصفراء التي تدلت على صدره منتشرة كالمروحة!.. وفي

وجهه الشاحب، الطويل نوعا، الذي ارتسمت عليه معالم الكد والنصب، كانت تومض عينان واسعتان زرقاوان بنظرات تفيض رقة ولطفا.. أما شفتاه– وكانتا رقيقتين مجردتين من أي لون– فقد راحتا تبتسمان، تحت شاربين أصفرين.. وكانت ابتسامته تكاد تنطق في اعتذار قائلة: "انني كما تراني، فلا تقس في الحكم علي!"

وقال صاحب المخبز:"أدخل يا ساشا، هذا هو مساعدك"، وأخذ يفرك يديه وهو يتطلع في إعجاب إلى ما للخباز الجديد من بنيان قوي، بينما تقدم هذا دون أن ينبس ببنت شفة، فبسط يدا ضخمة.. وتبادلنا التحيات، ثم جلس على أريكة خشبية ومد ساقيه، وحدق في قدميه، ثم قال لصاحب المخبز: "اشتر لي قميصين يا فاسيلي سيمونوفيتش، وحذاءين، وبعض القماش لأصنع طاقية!"

– سوف تنال كل شيء، فلا تشغلن بالك. لدي طواقي، كما أنني سأحضر لك أقمصة وسراويل في هذا المساء. وعليك– في الوقت ذاته– أن تشرع في العمل، وإني لأعرف أي رجل ماهر أنت،كما أنك لن تجد مني ما يدعو للشكوى.

إن أحدا لا يستطيع الإساءة إلى كونافالوف، لأنه لا يسئ قط إلى أحد. ولقد أوتيت في صدري قلبا رحيما، رغم أنني مخدومك، إذ كنت أنا الآخر أجيرا يوما، وأني لا أعرف أن المعاملة الخشنة تستدر الدموع!.. حسنا، تعاونا معا أيه الرجلين، ولسوف أترككما الآن.

وغادرنا، فجلس "كونوفالوف" في مكانه صامتا، يجيل البصر فيما حوله وعلى شفتيه ابتسامة. وكان المخبز يقع في الطابق الأسفل من إحدى البنايات، ذا سقف مقوس، وثلاث نوافذ منخفضة عن مستوى الطريق، ومن ثم كان الضوء والهواء فيه قليلين، كما كانت القذارة والرطوبة وغبار الدقيق موفورة!.. وكان ثمة معاجن ثلاثة لصق الجدار، أحدها فارغ، والآخر اشتمل على عجين حديث التجهيز. أما الثالث، فكان به العجين المخمر. وكان ثمة شعاع من الضوء الباهت يتسرب من إحدى النوافذ ويلقى طرفا منه على سطح كل معجن.

وعلى الأرض القذرة، تراكمت أكياس الدقيق إلى جوار موقد شغل حوالي ثلث المكان، وقد اتقدت فيه كتل كبيرة من الخشب بشدة، فراح وهج ألسنة اللهب ينعكس على الجدران القاتمة، موحيا إلى المرء بأن الجدران الصماء كانت تتكلم بلغة صامتة!

وكان السقف المنحني فوقنا يبعث الانقباض في النفس، كما كان امتزاج ما يصل إلينا من نور النهار بوهج نار الموقد ينتج ضوءا غريبا، مائعا، يتعب البصر. وخلال النوافذ، كان الغبار وضجيج الطريق ينسابان إلينا في تيار لا ينقطع!

وما إن أحاط كونوفالوف بكل هذا المنظر، حتى أرسل زفرة مثقلة، ثم قال بصوت لا يعبر عن أي شعور معين: "هل عملت هنا طويلا؟". فلما رددت، عدنا إلى الصمت، وراح كل منا يحملق في الآخر خلسة..وقال

أخيرا: "يا له من سجن!.. هلا خرجنا لنجلس على الأريكة الخشبية المجاورة للباب؟".. وإذ خرجنا، قال وكأنه يستأنف كلامه: "هنا يستطيع المرء أن يتنفس.. لسوف أحتاج إلى وقت ريثما أتعود هذا الجحر، فقد جئت لتوي من البحر، كما تستطيع أن ترى.. كنت أعمل في بحر قزوين، فتصور شعورك لو كنت مثلي ووجدت نفسك فجأة تدفن في جحر في جوف الأرض!"

ورماني بابتسامة سمجة، وكف عن الكلام، منصرفا إلى التحديق في المارة، وقد بدا في عينيه الزرقاوين وميض حزين. ثم أقبل المساء، فاشتد الضجيج والزحام والغبار في الطريق، وأخذت ظلال الدور تزحف مستطيلة. وظل كونافلوف جالسا في مكانه وقد ارتكن إلى الحائط، وعقد ذراعيه على صدره، بينما أمتدت أصابعه تعبث بلحيته الناعمة. واختلست نظرة إلى الوجه البيضاوي، الشاحب، وقت لنفسي: "ترى أي صنف من الرجال هو؟".. بيد أنني لم أجسر على التحدث إليه لأنه كان رئيسي، ولأنه أوحى إلي– بتصرفاته– بأن أحترمه!

وكانت التجاعيد ترسم على جبينه ثلاثة خطوط أفقية، أخذت تتلاشى وتعود بين وقت وآخر، فعجبت مما كان يساوره من أفكار. وما لبث أن قال:"هيا، لقد حان الوقت.. أخلط الدقيق للدفعة الثانية، فبينما أعد أنا الثالثة".. وبعد أن فرغنا من وزن العجين، ومن خلط الدقيق لدفعة أخرى، جلسنا نتناول كوبا من الشاي. وإذ ذاك دس كونوفالوف يده في

قميصه، وقال لي: "هل تستطيع القراءة؟.. هاك هذه فاقرأها علي". وقدم لي وريقة متسخة، مجعدة، فقرأت عليه ما كان بها:

"عزيزي ساشا: تحيات وقبلة بالبريد. إنني وحيدة، وشقية، وليس بوسعي أن أنتظر حتى يحين اليوم الذي أرحل فيه معك، أو أبدأ فيه حياة جديدة معك. إنني مريضة، وقد سئمت هذه الحياة التافهة، رغم أنني كنت أحبها في البداية. وإنك لتدرك السبب، كما شرعت أنا الأخرى في إدراكه بعد أن التقيت بك. أرجو أن تكتب إلي في القريب، فإني جد مشوقة إلى سماع أنبائك. مع السلامة مؤقتا، ولكنه ليس وداعا، يا حبيب قلبي الملتحي. لن أؤنبك، وإن كنت مستاءة منك أيها الخنزير! لقد رحلت دون أن تحفل بتوديعي، ولكنني أقر بأنني سعيدة معك كما لم أكن مع أي شخص آخر، ولن يقدر لي أن أنساك مطلقا..ألا تستطيع أن تدفع كفالة عني يا ساشا؟.. لقد أنبأتك الفتيات بأنني قد أنبذك بعد أن تدفع الكفالة ويمحى اسمي من القائمة، ولكن هذا محض هراء وأكذوبة. ولو استطعت أن تترفق بي، لصرت – مجرد محو اسمي من القائمة– أوفى لك من الكلب. إن محو أسمي من القائمة ميسور لك، ولكنه عسير علي. لقد بكيت حين جئت لتزورني، لأنني وجدت من المحتوم علي أن أعيش حياة كتلك التي رأيتني فيها، وإن كنت لم أنبئك بالسبب "ولك السلامة– حبيبتك كابيتولينا"

واسترد كونوفالوف الرسالة مني، وشرع يعبث بها في إحدى قبضتيه، بينما أخذ يبرم شعر لحيته باليد الأخرى، وهو شارد الذهن، ثم سألني: "هل تعرف الكتابة؟". فقلت "أجل".

– وهل لديك مداد؟

– أجل، عندي.

– إذن فاكتب لها رسالة.. من المحتمل أنها تظنني مخادعا، وأنني نسيت كل شيء عنها. فهلا كتبت إليها؟

– سأكتب.. ولكن، من هي؟

– مومس!.. ألا ترى أنها تسألني أن أعمل على محو اسمها من القائمة؟! إن هذا معناه أن أتعهد للبوليس بأن أتزوجها، وإذ ذاك يردون لها جواز السفر، ويرفعون البطاقة الخاصة بها من سجل المومسات، وبذلك تصبح حرة.. هل فهمت؟

* * *

ولم يمض نصف ساعة، حتى كنت قد أعددت خطابا مؤثرا، فقال كونوفالوف وهو نافذ الصبر: "هيا اقرأ.. ترى كيف جعلت وقعه؟".. فقرأته، وكان هذا نصه: "عزيزتي كابا: لا تظني أنني من الضعة حيث أنسى كل شيء عنك. لم أنس، ولكنني أصبت بنوبة خبال، فرحت أشرب الخمر بكل ما كنت أملك. على أنني حصلت على عمل جديد، وسأطلب غدا

مبلغا من أجري مقدما أبعث به إلى فيليب، وسيتكفل هو برفع اسمك من السجل، كما سأرسل ما يكفي لنفقات حضورك إلى هنا، فإلى الملتقى.. المخلص– ألكسندر".

وقال كونوفالوف وهو يحك رأسه:"هـ– م– م.. لست كاتبا مبدعا، فإن خطابك لا يتضمن مشاعر، ولا دموعا، ثم أنني سألتك أن تقسو علي في الخطاب فلم تفعل". فسألته: "ولماذا؟"

– لتشعرها بأنني أخجل من نفسي، وبأني أدرك مدى إساءتي معاملتها! هذا هو السبب، وأنه لواضح كل الوضوح. أذرف دمعة أو دمعتين!

ولم يعن لي من حيلة سوى أن أذرف دمعة أو اثنتين، وقد أبدعت في ذلك، فارتاح كونوفالوف، ووضع يده على كتفي، وقال متحمسا: «الآن تحسنت الأمور كلها.. شكرا.. أنني لأرى أنك من أصل طيب، ولن نلبث أن نسير معا في وئام!». ولم يكن يخالجني أي شك في ذلك، فسألته أن يحدثني عن "كابيتولينا"، وإذ ذاك قال:

– كابيتولينا؟.. إنها شابة.. فتاة صغيرة، من (فياتكا).. ابنة تاجر. تحولت عن الصراط المستقيم، الضيق، وأخذت كلما مضت في سيرها تزداد انغماسا في السوء، حتى انتهى بها المطاف إلى ماخور. وعندما رأيتها لأول مرة، ظننت.. يا إلهي! كيف حدث ذلك؟.. إنها مجرد صبية صغيرة!.. وتوطدت بيننا الصداقة، فكانت تبكي، وكنت أقول: «لا تبتئسي،

واصبري، فلن ألبث أن أنتشلك من هنا.. ليس عليك سوى أن تصبري بعض الوقت».. واستطعت أن أعد كل شيء.. في (استراخان). ثم وجدتني هنا.. وأنبأها شخص بمكاني، فكتبت لي ذلك الخطاب.

– وما الذي تنتوي عمله.. هل ستتزوجها؟

– أأتزوج أنا؟.. كيف لسكير أن يتزوج؟.. آه، لا! كل ما هنالك أنني سأعمل على إقصاء اسمها عن سجل البغايا، فتصبح حرة لتذهب أينما تشاء.. ولسوف تعثر على مكان يليق بها، وربما تحولت إلى امرأة طيبة!

– ولكنها تريد أن تعيش معك.

– إنها مجرد مجاملة.. كل النساء هكذا، فأنا أعرفهن كل المعرفة، لقد اتصلت بكثيرين منهن!.. بل لقد كنت على صلة يوما بزوجة تاجر، وكنت سائسا للخيل في (سيرك) حين وقع بصرها علي، فقالت: «تعال، وكن حوذيا عندنا!».وكنت قد سئمت (السيرك)، فذهبت إليها، وما لبثت كل خطوة أن أسلمتنا إلى ما بعدها. وكانت للأسرة دار كبيرة، وخل وخدم وما إلى ذلك.. كانوا يعيشون كاللوردات.. وكان زوجها قصيرا، بدينا كمخدومنا، بينما كانت هي نحيفة، رشيقة، لدنة كالقط، ودافئة.. وكانت تعانقني في شدة، وتطبع القبلات على فمي، فأحس لقبلاتها كي الفحم المتقد، مما كان يجعل كياني كله يرتجف!.. بل إنني كنت أخاف هذه المرأة.. كانت أنفاسها تتهدج– وهي تقبلني– بشدة تهز كتفيها هزا، فأقول لها:

«ماذا بك يا فيرا؟»، فتقول: «إنك كالطفل يا ساشا، لا تفقه شيئا!».. كانت امرأة رقيقة، عذبة، وكانت على حق فيما اعتادت أن تقول، إنني لم أكن في الواقع أفقه شيئا!.. إنني غبي، وأنني لاعترف بذلك!.. فأنا لا أدري السر في أي تصرف أقدم عليه، ولم أعتد أن أحفل مطلقا بالطريقة التي أعيش بها!

وتوقف عن الكلام ليحدق في بعينين مفتوحتين عن آخرهما، وقد أفعمتا ببريق جمع بين الخوف والحيرة.. كان يساوره شيء من الذعر، أبرز الأسى الذي كان يسيطر على وجهه، وزاده ملاحة. وإذ ذاك سألته: «وكيف انتهت علاقتك بزوجة التاجر؟»

– إنني أشعر من وقت إلى آخر بتعاسة طاغية، فلا أطيق المضي فيما أكون فيه من معيشة، إذ أحس كأنني الشخص الوحيد في الدنيا على سعتها، وكأنما الأرض لا تحمل مخلوقا حيا سواي!.. وفي مثل تلك الفترات، أكره كل إنسان.. أكره نفسي وكل امرئ آخر، فلا أحفل مطلقا لو أن كل مخلوق مات!.. إنه ولابد مرض متغلغل في نفسي، وهو الذي يدفعني إلى الإقبال على الشراب.. ومن ثم ذهبت إلى المرأة وقلت لها: «دعيني أرحل يا فيرا ميخايلو فنا، فإنني لم أعد احتمل!»، فسألتني وهي تطلق ضحكة كئيبة: "لماذا؟.. هل مللتني؟".. قلت: "إنني لم أسأمك أنت، وإنما سئمت نفسي!".. ولم تفقه قولي في بداية الأمر، فشرعت تصرخ وتؤنبني. ولكنها حين فهمت، اكتفت بأن أطرقت برأسها وقالت:"إذن، فاذهب!".. ثم

انخرطت في البكاء. وكانت ذات عينين سوداوين، وشعر مجعد، أسود كذلك، وقد انحدرت من أسرة كان أفرادها موظفين وليسوا تجارا. وأسفت من أجلها، وحقدت على نفسي. كان من العسير عليها- بطبيعة الحال- أن تعيش مع زوج كهذا، يشبه كيس الدقيق!

وسكت قليلا، ثم استطرد قائلا: «وبكت فيرا طويلا، إذ كانت قد ألفتني واعتادت معاشرتي في تلك الأثناء، وكنت جد رفيق بها.. كنت أحتضنها أحيانا وأروح أهدهدها كما لو كانت طفلة، فلا تلبث أن تنام، وإذ ذاك أجلس وأستغرق في تأملها.. وما أبدع ما يبدو المرء وهو نائم.. إنه يلوح جد وديع، ساذج.. يتنفس ويبتسم فحسب!.. وكنا نخرج أحيانا للنزهة في العربة، حين كنا نقيم في الريف أثناء الصيف، فكانت تستمرئ أن أطلق العنان للجواد حتى تمرق العربة كالريح.. فإذا بلغنا الغابات، ربطنا الجواد إلى شجرة، ورقدنا على الحشائش الرطبة. وكانت تسألني أن أضع رأسي في حجرها، وتمضي في القراءة لي، بينما أمضي في الإصغاء حتى يغلبني النعاس.. وما كان أبدع القصص التي اعتادت أن تقرأها لي!.. ولن أنسى واحدة منها كانت تدور حول أبكم يدعى "جيراسيم" وكلبه.. كان هذا الأبكم منبوذًا، لا يحظى بالحب إلا من كلبه، فكان إذا أوسعه الناس هزءا، انطلق يبحث عن كلبه هذا.. يا لها من قصة محزنة!»

وكان ذلك الـ «جيراسيم» من رقيق الأرض، فقالت له مولاته يوما: «اذهب فاغرق كلبك يا جيراسيم لأنه دائم العواء!»..وانطلق فاستقل

قاربا وضع كلبه فيه، وراح يجذف وارتجف كونوفالوف، ثم استأنف الحديث قائلا: «لقد اعتدت أن أرتعد كلما بلغت هذا الحد من القصة. يا لله!.. تصور أكراه رجل على قتل حيوان هو المصدر الوحيد وما أقربها إلى الحياة الواقعية.. وهذا ما جعلها رائعة!.. ففي الدنيا أناس على هذه الشاكلة، يجدون دنياهم بأسرها في شيء معين!.. خذ ذلك الكلب مثلا، لماذا تعلق جيراسيم بالكلب؟.. لأن أحدا لم يشأ أن يحبه، ولكن الكلب أحبه.. والإنسان لا يستطيع أن يحيا بلا حب، من أي نوع.. وإلا، فلماذا أوتي قلبا ينبض بالحب؟.. لقد كانت فيرا تقرأ لي كثيرا من القصص.. ما كان أحلاها من امرأة صغيرة! إنني ما أزال أشعر بالأسف من أجلها.. ولولا أنني ولدت في ظل كوكب منحوس، ما تركتها قبل أن تطلب هي بنفسها أن أفارقها، أو حتى يكشف زوجها أمرنا! كانت نفسا تفيض بالحب، وهذا أهم ما كانت تمتاز به.. ولم تكن جمائلها هي التي تنم عن حبها، وإنما كان قلبها ذاته يدين في سويدائه بالحب!.. كانت تقبلني وتفعل معي ما تفعله كل النساء الأخريات، ولكنها كانت أحيانا تتعرض لنوبة من الهدوء الشامل، فما كان أروع حسنها كانت تنفذ ببصرها إلى أعماق نفسي، وتحدثني بلهجة الأم، فأشعر بأنني أعود طفلا في الخامسة من عمري. ومع ذلك، فقد هجرتها. ما أتعسني!..كان الشقاء يجرني بعيدا عنها.. ومن ثم قلت لها:«وداعا يا فيرا ميخايلوفنا، واغفري لي»..فقالت:«وداعا ساشا». ثم، رفعت المجنونة كم قميصي عن ذراعي، وأنشبت أسنانها في لحمي،

فكدت أصرخ. بل إنها أوشكت أن تقتطع من لحمي لقد استغرق الجرح ثلاثة أسابيع كي يبرأ، ولا أزل أحمل آثاره!»

وكشف عن ذراعه المفتولة العضلات، فإذا بها ناصعة البياض، متناسقة الشكل، وعرضها علي في ابتسامة حزينة، رقيقة.. وكانت الندبة واضحة على مقربة من المرفق.. نصفا دائرة تكاد أطرافهما تقترب!.. وهز كونوفالوف رأسه وهو يتأمل الندبة مبتسما، ثم قال:«يا للمجنونة!.. هذه هي الهدية التي منحتنيها لأذكرها بها!»

وكنت قد سمعت قصصا من هذا القبيل، فإن كل أفاق تقريبا لا يتورع عن أن يروي لك شيئا عن «زوجة تاجر» أو «سيدة من الطبقة العليا »كانت مغامرة معها. ولقد اتخذت «السيدة الراقية» أو «زوجة تاجر» من الأشكال – في القصص التي لا حصر لها – ما جعلها تصبح شخصية خرافية لدى جميع المشردين، تتضمن أكثر الخلال البدنية والنفسية المتناقضة. فإذا كانت اليوم مرحة، سريعة التقلب، زرقاء العينين، فإنها لا تلبث أن تغدو في الأسبوع المقبل رقيقة، عاطفية، سوداء العينين..وتروي القصة في تواقح، وتثرثر بتفصيلات لا حصر لها، ولا هدف لها سوى اهانة المرأة!

غير أنني تبينت نبرة صدق في رواية كونوفالوف التي اشتملت على عناصر لم أسمع بها من قبل مطلقا، كقراءة الكتب، وكتشبيهه نفسه – وهو الرجل القوي – بالطفل! وتصورت تلك المرأة النحيلة وهي مستلقية في

أحضانه وقد أسندت رأسها إلى صدره.. وكان ثمة جمال في الصورة، مما ساعد على إقناعي بصدقها. ثم كانت هناك – في النهاية – تلك اللهجة الساجية، الرقيقة.. اللهجة الفذة، التي روى بها ذكرياته عن «زوجة التاجر». فإن الأفاق الحقيقي لا يتحدث قط عن النساء أو عن أي شئ آخر بمثل هذه اللهجة، بل أنه – على النقيض – يتيه متمشدقا بأن ليس على الأرض شئ يراه أهلا للتقديس والتوقير!

وتساءل كونوفالوف، وفي صوته رنة القلق: «لم لا تقول شيئا؟ أتظنني كاذبا؟».. وكان يجلس على أحد أكياس الدقيق، ممسكا كوب شاي بإحدى يديه، بينما كان يربت لحيته برفق اليد الأخرى.. وراحت عيناه الزرقاوان تتفرسان في وجهي متسائلتين، بينما ازدادت تجعدات جبينه وضوحا.. ثم عاد يقول: «إنها صادقة بحذافيرها، إذ لماذا أكذب؟..آه، إنني أدرك أننا معشر الأجلاف مولعون بنسج القصص.. ولم لا؟.. فإذا لم يقدر لامريء أن يعرف في الحياة شيئا ذا قيمة، فلماذا لا ينسج قصة خرافية يرويها على أنها حقيقة؟! لن يضار أحد بذلك، في حين أن صاحب القصة لن يلبث على مر الأيام أن يصدقها ويؤمن بها، وكأنها وقعت بالفعل على النحو الذي يرويه!.. أجل، إنه يصدقها، فإذا بها تبعث في نفسه شعورا من الارتياح. وكم من الناس يعيشون على هذا النحو.. لا مفر من ذلك! على أن ما أنبأتك به حقيقة صادقة..إنه عين ما حدث تماما. أفترى فيه شيئا غريبا؟.. ها هي ذي امرأة لا تنال من الحياة أي نصيب من السرور.. وأي

عجب في أن أكون مجرد حوذى؟..إن المرأة لا تفرق بين الحوذيين والسادة المهذبين والضباط..فنحن جميعا ذكور، وفي نظرها خنازير! كلنا نسعى وراء نفس الشئ، وكلنا يحاول الحصول عليه بأرخص ما يستطيع! وكلما كان الرجل ساذجا، كان حظه من الضمير أوفر.. وأنا أشد الناس سذاجة!.. هكذا تراني النساء دائما، فتطمئن نفوسهن إلى أنني لن أوذيهن ولن أعبث بهن أو أسخر منهن فالمرأة حين تزل، لا تخشى شيئا قدر خشيتها أن تتعرض للسخرية منها، أو للعبث بها. أن في المرأة أحساسا بالخزي والعار أكثر مما بنا نحن الرجال! فنحن إذا ما نلنا حظنا من اللهو، غدونا على استعداد لأن نخوض في الحديث عنه، ولو في ساحة السوق.. وإن الرجل منا ليقول لزميله: ليتك رأيت آية أنثى حمقاء وفقت إلى اصطيادها ليلة أمس. ولكن المرأة لا تستطيع التفاخر بشيء كهذا.. إن لدى أدناهن، قدرا أكثر مما لدينا من الحياء!»

وفيما كنت أنصت إليه، راحت الأفكار تساورني: ما أغرب أن تصدر مثل هذه العواطف الرفيعة عن رجل مثله!.. أتراه يعنيها حقا؟.. بل إنني أخذت ازداد دهشة وهو يمضي في حديثه، محملقا في وجهي بعينيه الصافيتين الشبيهتين بعيني الطفل!

ويحترق الخشب الذي كان في الموقد، تاركا كومة من الجذوات الملتهبة التي كانت تلقى وهجا ورديا على جدار المخبز.. بينما بدت رقعة مربعة من سماء زرقاء رصعت بنجمتين، خلال أطار النافذة. وكانت إحدى

النجمتين كبيرة جدا، ذات وميض متلألئ. أما الأخرى فكانت جد ملاصقة لها، وشديدة الشحوب!

لم ينقض أسبوع حتى غدوت وكونوفالوف صديقين حميمين. وكان يقول لي وهو يضرب ظهري بكفه الضخمة، وعلى وجهه ابتسامة عريضة: «إنك من النوع الساذج الذي أحبه!».. وكان فنانا في عمله. وليتك رأيته وهو يدحو قطعة العجين ويلفها، أو وهو مكب على المعجن أثناء العجن وذراعاه غارقتان إلى المرفقين في السائل اللزج السميك الذي كان يرسل أزيزا كلما ضغطه بين أصابعه الفولاذية.

ولا أكاد أفرغ قالبا من العجين في صفحته ذات اليد الطويلة، حتى يدفع بالصفحة إلى الفرن. وكنت في البداية أوجس خيفة من أن يضع الأرغفة متقاربة في عجلته وإسراعه، ولكنني تبينت أنه أستاذ في الحرفة عندما خبز ثلاث دفعات، دون أن ينبعج رغيف واحد من الأرغفة المائة والعشرين التي خرجت من الفرن ذات لون بني زاه، ولا يكاد الواحد منها يعدل الريشة في الوزن!.. كان يحب عمله حبا تغلغل في فؤاده.. فكان القلق يتولاه إذا لم يسخن الفرن، أو إذا تأخر اختمار العجين، كما كان لا يفتأ يؤنب صاحب المخبز إذا ابتاع دقيقا من صنف ردئ! وكان يغتبط – كالطفل – ويفرح، إذا خرجت الأرغفة من الفرن مكتملة الالتفاف والاتساق، وقد نضجت إلى الدرجة التي تجعل لها قشرة رقيقة متوردة!..

وكان يتناول أبدع رغيف في بعض الأحيان ويقول ضاحكا – وهو يتلقفه من يد إلى أخرى، والبخار ما يزال يتصاعد منه لسخونته: «ألا أنظر إلى هذه التحفة البديعة التي صنعناها.. أنا وأنت معا!»..كنت أجد متعة في مراقبة هذا الصبي الكبير أثناء العمل، فقد كان يخلق للعمل روحا..وهو ما يجب أن يفعله كل شخص، مهما يكن عمله! وقلت له ذات يوم: «يقولون إنك تحسن الغناء ياساشا؟»

– أجل، ولكنني لا أغني في كل وقت، وإنما أغني في أوقات معينة..أو بالأحرى في نوبات..فأنا أبدأ في الغناء عندما أشعر بالشقاء!.. ولو أنني شرعت أغنى دون ما شقاء، لأضحى من الأكيد أن يتلمس الشقاء طريقه إلي!.. ولكن، دعنا من هذا الحديث، ولا تغربي!.. ألا تغني؟.. إنها فكرة طيبة أن تغني!.. ولكن لا تشرع في الغناء حتى أغدو في حال أتقبل معها الغناء، وإذ ذاك نغني معا.. أتوافق؟

ووافقت على الانتظار، ورحت أصفر كلما راودتني الرغبة الملحة في الغناء. ولكنني كنت أنسى وعدي في بعض الأحيان، فأشرع في الغناء بصوت خافت وأنا أعجن أو ألف الأرغفة النيئة، فكان كونوفالوف يصغي وقد راحت شفتاه تتحركان، ثم لا يلبث أن يذكرني بوعدي. وكان يصيح بي أحيانا في غلظة: «أصمت!..كفى عويلا!».

وجدت كتابا من صندوقي– في أحد الأيام – وجلست لدى النافذة أقرأ، بينما غفا كونوفالوف فوق أحد المعاجن.ولكن حفيف الورق وأنا

أقلب الصفحات جعله يفتح عينيه، متسائلا: «عم يدور كتابك هذا؟». وكان عنوان الكتاب«بودليبوفيتس»، فقال لي كونوفالوف: «هلا قرأته علي؟»

وشرعت في القراءة بصوت مرتفع وأنا جالس على حافة النافذة، بينما استوى هو جالسا، ووضع رأسه على ركبتيه وراح يصغي. وكنت أرفع بصري عن الكتاب – من وقت إلى آخر – لأنظر إليه، فتلتقى نظراتي بنظراته. ولا تزال صورة عينيه منطبعة على صفحة ذاكرتيا اليوم..عينان واسعتان باديتا اليقظة، تفيضان اهتماما وانتباها. كذلك كان فمه مفتوحا، يكشف عن صفين من أسنان بيضاء مفلوجة..كان منظره يوحي بالإلهام لأي فنان، وقد جلس رافعا حاجبيه، وتخللت جبينه العريض خطوط غائرة، وأحاطت قبضتاه بركبتيه، وسكن كل كيانه في اهتمام، مما أوحي إلي بأن أحاول أن أبدع في الإلقاء ما استطعت، وأنا أقرأ عليه قصة بيلا وسيسويكا المحزنة..على أنني تعبت في النهاية، فأغلقت الكتاب.وإذ ذاك تساءل كونوفالوف هامسا: «أهذا كل القصة؟»،فأجبت: «بل هذا أقل من نصفها»

– هل تقرأها علي كلها؟

– إذا شئت.

فاحتوى رأسه بين راحتيه، وأخذ يترنح من جانب إلى آخر وبدا لي أن لديه شيئا يريد أن يقوله، ولكنه فتح فمه ثم أغلقه، وراح يزفر وكأنه منفاخ، بينما ضاقت حدقتاه. ولم أكن قد توقعت أن يكون للقراءة مثل هذا التأثير

عليه، ولا فهمت سر تأثره هذا!.. وعاد يهمس: «كيف وفقت إلى القراءة بلهجات مختلفة، تبين حوار كل شخص وكأنه على قيد الحياة؟.. أبروسكا، وبيلا.. يا لهما من أحمقين، مضحكين للغاية!.. وما الذي يجري بعد ذلك؟.. إلى أين يذهبان؟.. يا للمسيح..يا للعجب، كأني بالرواية حقيقة، وأبطالها أفراد حقيقيون ككل الناس.. لهم أصوات ووجوه تنبض بالحياة!.. ألا اسمع يا مكسيم، لنقرأ جزءا آخر بعد أن نضع الخبز في الفرن!»

وأعددنا كمية أخرى من العجين، ثم عاودت القراءة ساعة ونصف ساعة. حتى إذا نضج الخبز، توقفنا لنخرجه، ولنضع أرغفة أخرى في مكانه، ولنعجن كمية جديدة ونعد الخميرة.. وفعلنا كل ذلك في تعجل محموم، ونحن لا نكاد نتكلم بأكثر من مقاطع مبتورة كان كونوفالوف يطلقها من وقت لآخر لإرشادي وهو عابس، مسترسل في العمل.

* * *

وكان النهار قد أقبل عندما انتهينا من الكتاب، وقد جف لساني وأدركه الكلل!.. وكان كونوفالوف يجلس على أحد أكياس الدقيق يتطلع إلي، دون أن ينبث ببنت شفة، وفي عينيه وميض غريب، بينما شدت قبضتاه على ركبتيه. وسألته أخيرا: «هل أعجبت بها؟».. فهز رأسه وهو يرفع عينيه إلى أعلى، حتى إذا قدر له أن يتكلم، انبعث صوته هامسا مرة أخرى وهو يتساءل: «من الذي كتب هذا؟».. وكانت عيناه مفعمتين بعجب لا سبيل للكلمات إلى وصفه. وفجأة، أشرق وجهه بفيض من

شعور قوى. فلما أنبأته باسم المؤلف، هتف: «يا له من رجل!.. لقد أجاد حتى لكأنه يصف الحقيقة.. أليس كذلك؟.. انك لتكاد تشعر بالخوف وبالقشعريرة تسري في أوصالك، وكان الأمر حقيقة تجري في الحياة!.. وما شأنه هذا الكاتب؟.. ما الذي يناله من كتابة شيء كهذا؟».فشرعت أقول: «هذا..»، ولكنه قاطعني مسترسلا: «ألا يمنحونه شيئا.. وساما، مثلا». فتساءلت بدوري: «ولماذا يمنحونه وساما؟»

– لأن الكتاب أشبه ببيان يصدره البوليس، يقرأه الناس ثم يشرعون في الحديث عنه. إنهم خليقون بأن يتحدثوا عن بيلا وسيسويكا مثلا.. فما من أحد يتمالك نفسه من الشعور بالإشفاق عليهما، إذ يعيشان في مثل تلك الظلمة التي كانت تكتنفهما.. حياة الكلاب.. ومن ثم.. فقلت استحثه: «ومن ثم ماذا؟».. فرمقني وقد بدا يأخذ حذره في الكلام، ثم قال وكأنه يتعرف أثر قوله في نفسي: «يجب أن يكون هناك إجراء يتخذ..إنهما مخلوقان، وجديران بأن يتلقيا العون من أحد!». وألقيت عليه محاضرة طويلة لكي أشرح له أن الأمر كله من نسيج الخيال.ولكن حديثي كان عبثا، إذ لم يترك في نفسه الأثر الذي كنت أرجوه.

كان كونوفالوف ينصت وقد بدا عليه التفكير، فنكس رأسه، وتنهد، وراح يترنح إلى الإمام والى الخلف، ولكنه لم يحاول أن يقاطعني مرة واحدة، حتى كل لساني من الكلام، فسكت. وإذ ذاك رفع رأسه ورمقني في أسى

وقال: «إذن فهم لم يمنحوه شيئا؟».. فتساءلت وقد نسيت كل شيء عن المؤلف: «من؟»

- ذلك الكاتب!

ولم أجب، فقد غاظني أن كشف لي عن عجزه عن فهم ما كنت أقول. وما لبث أن تناول الكتاب فقلبه باحترام بين يديه وفتحه ثم أغلقه ووضعه في مكانه ثانية. ثم تنهد وقال بصوت خفيض: «ما أعمق الأمر!.. هاهو ذا رجل يكتب كتابا.. لا شيء سوى ورق تتناثر فيه علامات صغيرة.. كتبها.. هل مات هذا الرجل؟».. فقلت «أجل»

- مات، ولكن كتابه يقرأه الناس.. يبصره امرؤ بعينيه وينطق الكلمات المختلفة، بينما ينصت امرؤ آخر فيعرف أن ثمة أشخاصا يدعون بيلا وسيسويكا وابروسكا كانوا يعيشون يوما.. ويحزن من أجلهم رغم أن عينيه لم تقعا عليهم، ورغم أنهم.. لا شيء بالنسبة إليه!.. ولعل المرء يمر بعشرات من الأحياء الذين يشبهونهم أثناء سيره في الطريق — كل يوم — فلا يضيره أنه لا يعلم شيئا عنهم .. بل إنه لا يكاد يحس بوجودهم. أما إذا التقى بهم في كتاب، فإن قلبه يتفطر عطفا عليهم!.. كيف تفسر هذا؟.. أذن، فقد مات الكاتب دون ما جزاء؟.. ألم ينل شيئا على الإطلاق؟

وازددت غيظا، ورحت أبين له كيف يكافأ الكتاب على مؤلفاتهم، فتطلع إلى بعينين جزعتين، وحرك لسانه في فمه محدثا صوتا ينم عن

إشفاق، ثم تنهد قائلا: «إنها لحال بديعة حقا!». ثم نكس رأسه، وراح يقضم طرف شاربه..وإذ ذاك شرعت في الحديث عن الدور الأليم الذي تتخذه الحانات في حياة الأدباء الروس..

حدثته عن الأدباء الحقيقيين، الأفذاذ، العظام، الذين قضت عليهم «الفودكا» لأنهم كانوا يلجأون إليها كمصدر وحيد للتسرية، في حياة مليئة بالعناء! وتساءل كونوفالوف في همس المبهوت المستنكر: «هل يشرب مثل هؤلاء الناس؟».. وقرأت في عينيه تكذيبا لما قلت، وخوفا ورثاء لأولئك الرجال. وعاد يقول: «أحقا يشربون؟ أظنهم يقبلون على الشراب بعد أن يفرغوا من تأليف كتبهم.. أليس كذلك؟».. ولم أر في سؤاله ما يروق لمزاجي، فتجاهلت الرد عليه. وإذ ذاك قال كونوفالوف جازما: «بعد الفراغ من الكتب بالطبع.. إن هؤلاء الكتاب كقطع الإسفنج.. يمتصون هموم غيرهم من الناس!.. إن لهم عيونا خاصة تكشف هذه الهموم، وقلوبا خاصة تحس بها.. ومن ثم فإن إطالة التأمل في الحياة تشقيهم، فيصبون شقوتهم في كتبهم. ولكن هذا لا يخفف عنهم، لأن الألم ينطبع على قلوبهم، ولأن الشقاء لا ينمحي عن النفس إذا سكنها، ومن ثم لا يبقى أمامهم سوى طريق واحد..هو أن يغرقوا الهم في «الفودكا». وهذا هو السبب في إقبالهم على الشراب. أتراني أصبت؟» ..

وأقررت رأيه، فكأنما شجعه ذلك على التعمق في الغوص في نفسية الكتاب، قائلا: «على أن الإنصاف يقتضي أن يكافأوا، إلا ترى ذلك؟..

فهم يفوقون في الفهم غيرهم من الناس، وهم يكشفون للغير عيوب الحياة. إليك أنا مثلا.. من أكون؟.. جواب آفاق، سكير، لا يصلح لشيء.. شخصية مشوهة! لا معنى ولا قيمة الحياة مثل حياتي، إذ ما غاية بقائي في هذه الدنيا؟ من الذي يحتاج إلي؟ لا زوجة هناك، ولا أولاد، ولا مكان أستطيع أن أقول إنه داري.. بل إنني لا أملك مجرد الشوق لشيء من ذلك، وإنما أنا أواصل العيش في شقاء، دون أن يدري أحد أي مبرر لحياتي؟.. ليس في أعماقي شيء يرشدني.. شيء لا أعرف كيف أسفه لك.. لعله بصيص من نور!.. المهم أنني افتقد شيئا في الأعماق استلهمه الإرشاد، فأنا إذ أمضي في العيش أسعى باحثا عن هذا الشيء، وأتوق إليه، ولكنني لا أدرك كنهه.. لست أدري ما هو؟»

وتطلع إلي، وقد أسند رأسه إلى راحته، وانعكست على وجهه الأفكار التي كانت تعتمل في ذهنه وتحاول أن تتخذ شكلا تظهر فيه، فقلت أستحثه: «وبعد؟». فقال: «آه.. لست أدري كيف أصف لك ما في نفسي، ولكني أحسب لو أن واحدا من هؤلاء الكتاب جاءني وتأملني، لكان من المحتمل أن يتمكن من تفسير حياتي.. أليس كذلك؟.. ما رأيك؟» وخيل إلى أن بوسعي أن أقوم أنا بهذه المهمة، فبادرت أزجي إليه ما حسبته شرحا جد واضح وبسيط.. فتحدثت عن الظروف والبيئة، وعن عدم المساواة، وعن أولئك الذين كانوا سادة يسيطرون على الحياة، وأولئك الذين كانوا ضحاياها. وأخذ كونوفالوف يصغي في انتباه وقد أسند خده

إلى راحته، وبدا كما لو أن ثمة حجابا أخذ ينسدل رويدا على عينيه الزرقاوين اللتين كانتا مفتوحتين على سعتهما، واللتين كانتا تنمان عن موهبة، وقدرة على التعبير، والتفكير.. أما تجاعيد جبينه فقد ازدادت غورا. ولم يكن تنفسه ملحوظا، فكأنه أمسك أنفاسه لينصرف بكل حواسه إلى استيعاب ما كنت أقول.. وازدهاني الأمر، فرحت أرسم له صورة حياته في حماس عارم، مبينا له أن لا لوم عليه ولا تثريب في أن صار الي ما هو عليه، لأنه كان ضحية الظروف..فهو ولد مساويا لغيره من الناس، ولم يصبح نكرة تافه الشأن، من الناحية الاجتماعية، إلا لأنه كان مشدودا إلى سلسلة من المظالم المجافية للعدالة، والتي تمتد من عصور سحيقة في التاريخ.واختتمت حديثي قائلا: «لا ذنب عليك ولا لوم، فإنما أنت مظلوم!»

ولم يقل شيئا، وإنما ظل في مجلسه يحدق في وجهي. وخيل إلي أنني ألمح ابتسامة مشرقة تتهيأ في أغوار عينيه، فترقبت بصبر نافد ما كان يتأهب ليقوله.. وما لبث أن مال نحوي وهو يطلق ضحكة خافتة، ووضع راحته على كتفي في حركة أنثوية رقيقة، وقال: «ما أبسط شرحك يا رفيقي، فمن أين لك كل هذا؟.. أهو من الكتب؟ أنك ولابد قرأت الكثير منها.آه، ليتني قرأت قدر ما قرأت أنت!..من الغريب أن معظم الناس يلومون الغير على المظالم التي يقاسيها هؤلاء الغير، أما أنت فتلقي اللوم على الحياة بأسرها.. على النظام كله!..فالرجل نفسه لا يلام على شيء..

إذا كان قد ولد ليكون شريدا، فلابد أن يغدو كذلك.. وما أعجب ما تقوله عن المذنبين فهم يسرقون لأنهم بلا عمل، ولابد لهم من الحصول على القوت بطريقة ما. ما أكرمك! لقد أوتيت قلبا جد رقيق!»

قلت: «مهلا..هل تقرني على ما ذهبت إليه؟..هل تظن أن ما قلته صحيح.. أم أنه خطأ؟»، فأجاب: «إنك أدري مني بما إذا كان صحيحا أو خطأ، ففي وسعك أن تقرأ.. وإذا طبقت هذا الكلام على الآخرين، فأنني أراه صحيحا.. أما إذا شئت أن تطبقه على أنا».فهتفت: «ماذا؟».. قال: «إنني حالة خاصة..من الذي يلام على أنني سكير؟.. إن أخي «بافل»لا يشرب الخمر، وله مخبز في «بيرم».. ومع أنني أمهر منه في الحرفة، إلا أنني شريد، سكير، ولا تستطيع بلباقتك أن تغير من هذه الحقيقة..ومع ذلك فأنا وهو شقيقان ولدنا من أم واحدة بل إنه أصغر مني سنا ومن ثم ترى أن لابد من وجود عيب في شخصي. إنك تقول أن الناس جميعا سواسية، ولكنني حالة خاصة.. ولست وحدي في هذا، بل هناك كثيرون على شاكلتي..نحن مخلوقات من نوع خاص.. لا نتسق مع أية صورة أو مجموعة، بل نحن في حاجة إلى حكم خاص، وتقدير خاص.. نحن في حاجة إلى قوانين خاصة.. قوانين قاسية، تنفينا عن الأرض، لأننا لا ننفع أحدا، وإنما نحن نشغل فراغا، ونقف في طريق غيرنا من الناس!.. من المسئول عن هذا؟ من الملوم؟. نحن أنفسنا الملومون، لأننا لا نكن بين جوانحنا أي حب للحياة، بل ولا لأنفسنا!»

وهكذا كان هذا الرجل الهائل الجسم، ذو العينين الصافيتين كعيني الطفل، ينقم على نفسه بسهولة، ويدمغ نفسه – وعلى شفتيه تلك الابتسامة المؤثرة – بأنه تافه ومن ثم يجب أن ينفى عن الأرض!.. وبهت مأخوذا، فما صادفت من قبل صفة إنكار الذات في شخص شريد، إذ أن معظم الشريدين بعيدون بطبعهم عن كل ما يتعلق بأنفسهم.. يعادون كل شيء سوى أنفسهم، ولا يصبون إلا إلى اتخاذ كل شيء هدفا لسخريتهم المبغضة، المزرية..كان كل من قابلتهم من هذا الصنف – من قبل – يلومون الغير دائما، ولا يكفون عن الشكوى، ويغمضون أعينهم في إصرار عن الدليل الذي لا سبيل الى إنكاره، والذي يعارض ما يدعونه من عصمة وتنزه عن العيب!.. إنهم – دون استثناء – يعزون فشلهم إلى قسوة القدر، أو إلى لؤم الآخرين. أما كونوفالوف، فلم يلم الحظ، ولم يتهم الغير، وإنما ألقي على نفسه – وحدها – ذنب ما انتهت إليه حياته من خيبة!. وكان يزداد أضرارا على أنه الملوم فيما آلت إليه حاله، كلما جهدت في محاولة أقناعه بأنه «ضحية الظروف والبيئة»!

وكان هذا اتجاها جديدا، مبتكرا، أثاريي.. كان كونوفالوف يجد لذة في أن يقسو على نفسه.. لذة كانت تلمع في عينيه وهو يصيح بصوته المدوي: «كل إنسان سيد نفسه والمسئول عنها، فلا مسئولية على أحد إذا كنت الآن وغدا!».. وما كنت لأدهش لو أنني سمعت شخصا مثقفا يقول هذا الرأي، لأن جميع أنواع الألم والاستهجان إنما تتفجر من تلك

الأداة النفسية العقلية التي عرفت باسم «الإدراك المتنور».. وإنما كانت الغرابة في أنني سمعت مثل هذا الرأي يصدر عن شفتي هذا الجلف، ولو أنه كان ذا أدراك متنور بين المغبونين، الجوعي، العرايا، المتذمرين، أنصاف الآدميين وأنصاف الوحوش، الذين يوجدون في الأحياء الدنيا الموبوءة، الفاسدة، في مدننا!.. ولم يكن ثمة تفسير لذلك سوى أن كونوفالوف كان «حالة خاصة»بالفعل.. ولكنني لم أشأ أن أسلم بذلك!

لقد كان – من حيث المظهر الخارجي –مثالا دقيقا، في كل شيء، للشريد جواب الآفاق، ولكنني كنت كلما ازددت معرفة به، ازددت اقتناعا بأنه كان مثالا يختلف عن الفكرة التي كونتها في ذهني عن أولئك القوم الذين كان ينبغي أن يعتبروا – منذ طويل – طبقة قائمة بذاتها، والذين يستحقون اهتمامنا عن جدارة، لأنهم متعطشون، تواقون، مشبوبو الحقد، غير أغبياء على الإطلاق!

واحتدم النقاش بيننا، فصحت: «أصغ لي..كيف يقدر لرجل أن يستوي على قدميه بينما كل أنواع القوى المظلمة تدفعه من كل جانب إلى أسفل؟»..فقال معارضا في حرارة، وقد اتقدت عيناه: «أن عليه أن يصر على موقفه!»، فهتفت: «وبماذا يتشبث؟».. قال: «يبحث عن شيء يمسك به»، فقلت: «ولماذا لا تفعل أنت ذلك؟»

– يا لك من مضحك! ألم أقل لك أنني ملوم؟.. إنني لم أجد ما أتشبث به. لقد ظللت أبحث عنه، وأتوق إليه، ولكنني لا أستطيع أن أعثر عليه!

وكان الوقت قد حان لتفقد الخبز، فنهضنا، وكل منا ماض في محاولة أقناع الآخر بصحة رأيه، حتى إذا فرغنا من العمل، استلقينا وقد برح بنا التعب والإعياء.. فارتمي كونوفالوف على الأرض، وسرعان ما راح في سبات عميق، أما أنا فقد رقدت علي بضعة أكياس من الدقيق، رص بعضها فوق بعض. ورحت من هذا الارتفاع أطل على الشخص القوي، الملتحي، الذي استلقى باسطا أطرافه وكأنه أحد أبطال القصص. وكان جو المكان يعبق بعبير الخبز الناضج، والعجين المتخمر، والخشب المحترق. وما لبث الفجر أن انبثق، ولاحت السماء داكنة خلال زجاج النافذة المكسو بغبار الدقيق. وسمعت صوت عربة أثناء مرورها، ودوى بوق أحد رعاة البقر وهو يجمع قطيعه.. وارتفع غطيط كونوفالوف. وفيما كنت أرقب الصدر الضخم وهو يرتفع وينخفض، حاولت أن أفكر في طريقة سريعة أحوله بها إلى رأيي، ولكنني غفوت قبل أن أوفق إلى طريقة! ونهضنا في الصباح، فأعددنا الخميرة، ثم اغتسلنا، وجلسنا على أريكة خشبية نتناول الشاي. وإذ ذاك سألني كونوفالوف: «هل لديك كتب أخرى؟»، فأجبت قائلا: «نعم».

– هل تقرأها عل؟

- وهو كذلك!
- اسمع، لسوف أعمل شهرا، ثم أتقاضى أجري من صاحب المخبز، فأعطيك نصفه..
- وما الداعي لذلك؟
- لتبتاع كتبا... كتب عن الفلاحين.. عن أمثال «بيلا» و«سيسوينا»، ولكن تأكد من أنها كتبت بعاطفة صادقة لا لمجرد التسلية..فإن بعض الكتب غثة تافهة، حتى ولو حملت صفحتها الأولى صورة!.. كما أن هناك كتبا تحوى قصصا خرافية لا أميل إليها.. ما كنت أعرف قط أن ثمة كتابا كهذا الكتاب الذي تملكه!
- أتحب أن أقرأ لك عن «ستنكا رازين»؟
- ستنكا.. أهو كتاب طيب؟
- جدا.
- علينا به!

وهكذا شرعت اقرأ عليه كتاب «نشأة ستنكا رازين» للكاتب «كستورماروف». ولم يرق هذا المؤلف الرائع للمستمع الملتحي في بداية الأمر، اذ كان في معظمة قصيدة عن البطولة، فسألني وهو تأمل الكتاب: «لماذا لا يتخلله حديث ما؟»

وحاول أن يخفي تثاؤبه وأنا أشرح له موضوع الكتاب، الأمر الذي أخجلني، فقال وكأنما شعر بأنه آلمني: «امض في القراءة.. لا تعبأ بما قلت» وإذ مضى المؤرخ يرسم في براعة الفنان صورة البطل الروسي «ستيبان رازين»، وأخذ هذا الزعيم – «أمير أحرار الفولجا»– يطل من خلال صفحات الكتاب، استولى على كونوفالوف تحول غريب، فإذا بالرجل الذي كان يلوح ضجرا، غير مكترث لشيء، يتراءى لي تدريجيا، ودون أن أفطن إلي تطوره، في شكل جديد، مدهش. فمن مجلسه على المقعد المواجه لي – وقد أحاط ركبتيه بذراعيه وأسند إليهما ذقنه فانسدلت لحيته على ساقيه – أخذ يلتهمني بعينين متقدتين.

كنت ألمحهما تحت حاجبيه المتقاربين.. ولم يبدو عليه أي أثر لتلك السذاجة الصبيانية التي كانت تدهشني فيه، ولا لكل البساطة، والرقة الأنثوية التي كانت تتسق مع عينيه الزرقاوين، اللطيفتين، اللتين أصبحتا داكنتين، ضيقتين.. كان ثمة شيء يحترق في كيانه.. بل كان ثمة شيء من طباع الأسود يتجسد ويتجمع في عضلاته المنتفضة!

وأمسكت عن القراءة، فقال في لهجة هادئة، ولكنها حازمة: «امض!»، فسألته : «ماذا جرى؟». ولكنه كرر في شيء من الانفعال: «امض!».. ومضيت في القراءة، وأنا ألاحظ كلما رمقته انه كان يزداد انفعالا.. وأن هذا الانفعال كان يولد في نفسي شيئا يؤثر في، بل يخدرني.. شيئا كأنه بخار حار!.. وبلغت أخيرا النقطة التي وقع عندها «ستنكا»

أسيرا، فصاح كونوفالوف: «أذن فقد أمسكوا به؟».. وكانت صرخته مفعمة بالألم، والغضب، والحسرة!.. وتفصد العرق من جبينه، وزاغت عيناه بشكل غريب، ثم قفز عن مقعده، ووقف أمامي بقامته الفارعة، وهو يرتجف، ثم قال بسرعة، ملقيا راحته على كتفي: «مهلا..كف عن القراءة. حدثني عما سيجرى بعد ذلك. لا، لاترو.. هل سيقتلونه؟.. اقرأ يامكسيم، بسرعة!».. وكأنما كان كونوفالوف شقيق رازين!..

كانت لهجته توحي إلى المرء بأن ثمة روابط من الدم والقربى — لم يوهنها انقضاء ثلاثمائة عام — تمتد بين هذا الشريد وستنكا!.. كان، بكل قواه وكيانه الجبار، وبكل ما للنفس المشوقة إلى «شيء تتشبث به» من عاطفة، يعاني آلام الثائر المحب للحرية، ويحس بكل ما اعترى ذلك الثائر من غضب عندما وقع أسيرا منذ ثلاثمائة عام!.. وراح يهتف بي: «ألا امض في القراءة بحق المسيح!»

واستأنفت القراءة وأنا أشعر باضطراب عميق، وبوجيب قلبي يدق بعنف، إذ كنت أشارك كونوفالوف الألم الذي عاناه ستنكا. وسرعان ما بلغنا وصف تعذيبه، فبرز فكاكونوفالوف في تحفز، وتطاير الشرر من عينيه، ومال على كتفي وقد علقت نظراته بالصفحة، وانبعثت أنفاسه قوية تلهب أذني، وتدفع بشعري إلي عيني، فرفعته.. وإذ رأى كونوفالوف ذلك، ضغط بإبهام ثقيلة على الشعر..وتابعت القراءة: «إذ ذاك أصر رازين على أسنانه بقوة جعلتها تتساقط، فبصقها مع الدم إلى الأرض...»

وصاح كونوفالوف وهو يختطف الكتاب من يدي: -أمسك عن القراءة..ليذهب الكتاب إلى الجحيم!

ثم ألقى به أرضا، وتهالك إلى جواره وأخذ يبكي.ولكنه خجل من البكاء، فراح يزمجر ليكتم نهنهته. ودفن رأسه بين ركبتيه وأطلق لدمعه العنان ثانية، ملصقا عينيه بسرواله القطني القذر ليجففهما! وظللت جالسا على المقعد أمامه، عاجزا عن أن أجد كلما أواسيه بها. وأخيرا قال وهو جاثم في مجلسه على الأرض: «تصور يا مكسيم!.. بيلا.. سيسويكا.. ثم ستنكا أخيرا.. أية نهاية!.. تصور نفسك مضطرا إلى أن تبصق أسنانك على هذا النحو!».. وسرت في كيانه رعدة..كان مأخوذا بما جرى لستنكا إذ بصق أسنانه فكان لا يفتأ يرتد إلى هذه النقطة، فتهتز كتفاه في انفعال عصبي وهو يذكرها!.. واضطراب ذهننا بتأثير الصورة الإنسانية التي مثلت لنا التعذيب الوحشي.. وما لبث كونوفالوف أن هذا، فقال: «اقرأها لي مرة أخرى.. هلا فعلت؟». وناولني الكتاب قائلا: «هاك.. أرني الموضع الذي ورد فيه ذكر الأسنان»، فلما أشرت إليه، ثبت عينيه على السطور، وقال: «أهذا هو المكتوب حقا؟.. هل كتب: «وبصق أسنانه مع الدم»؟.. إن الحروف هنا شبيهة بكل الحروف الأخرى.. يا إلهي!.. ما أشد الأذى الذي عاناه ولابد!.. حتى أسنانه.. وما الذي سيجري بعد ذلك؟.. هل سيقتلونه؟.. الحمد لله لأنهم سيقتلونه في النهاية!»

وتجلى فرحه – في العبارة الأخيرة – عارما، يصحبه وميض في عينيه ينم عن ارتياح عظيم، فارتجفت وأنا أتصور الانفعالات التي جعلته يتمنى موت ستنكا المعذب.. بمثل هذه الحرارة!.. وعشنا باقي يومنا ذاك في شبه حلم، لا نتكلم إلا عن ستنكا، فنتذاكر أحداث حياته، والأغاني التي كتبت عنه، والعذاب والأهوال التي تعرض لها. وشرع كونوفالوف – مرتين – يغني إحدى هذه الأغاني بصوته القوي النبرات، ولكنه كان لا يلبث أن يصمت في منتصف الأنشودة، في كل مرة.

ومنذ ذلك اليوم، ازدادت الصداقة توثقا بيننا. وقرأت له قصص: «نشأة ستنكا رازين» و«تاراس بولبا» و«الفقراء» عدة مرات. وتأثر مستمعي بتاراس بولبا أشد التأثر، ولكنه لم يقو على مغالبة الأثر الذي تركه في نفسه كتاب كوستوماروف. ولم يستطع أن يفهم «خطابات مقار ديفوشكين وفاربا» فقد بدأ له أسلوب «مقار» في رسائله مضحكا، كما بدا متشككا في شعوره نحو فاريا، فكان يقول: «تصور كيف تتزين لذلك الشيخ؟ إنه دهاء منها أن تتزين لغراب مخيف كهذا! ولكن، لا تضيع الوقت في هذا الجزء يا مكسيم، إذ ما قيمته.. هو يكتب إليها، وهي تكتب إليه.. لا شيء سوى إتلاف الورق هباء.. ليذهبا إلى الجحيم، فليس في القصة ما يسر النفس، ولا ما يثير الأسى، فلماذا كتبت إذن؟» وإذ قلت له أنهما يشبهان «بيلا» و«سيسويكا»، صاح مستنكرا: «ان بيلا وسيسويكا يختلفان عنهما، فهما إنسانان حقا.. أنهما من نوع الناس الذين

يعيشون ويناضلون. أما هذان، فماذا يكونان؟.. كل ما يفعلانه هو كتابة الرسائل.. شيء ممل!.. بل إنهما لا يشبهان الأحياء في شيء، فهما مجرد صورتين مصطنعتين.. خذ تاراس وستنكا مثلا.. ياإلهي!.. ألا ترى أنهما لو اجتمعا معا لصنعا العجائب!.. أنهما خليقان بأن يبثا في بيلا وسيسويكا حياة جديدة!»

كان إدراكه للزمن والعهود مهوشا، من ثم فقد كان يخال أن كل إبطاله المحبوبين عاشوا في زمن واحد، وان اثنين منهم كانا يعيشان في (أوسولاي) وواحدا بين فلاحي (اوكرانيا)، والرابع في حوض نهر (الفولجا). ووجدت عناء في أن أجعله يفهم أنه لو كان قد أتيح لبيلا وسيسويكا أن يبحرا نحو مصب (الفولجا)، لما التقيا بستنكا، وانه لو كان أتيح لستنكا أن يرحل إلى إقليم الدون قوازق، واختلط بفلاحي أوكرانيا، لما التقى ببولبا!.. واستاء حين عرف الحقيقة..ورويت له شيئا عن نشأة«بوجاتشيف»، وأنا أتوق إلى أن أعرف رأيه فيه، فإذا هو لا يرتاح إليه. وقال:

– أنه مخادع قذر..هذا رأيي فيه. لقد كان يتوارى وراء اسم القيصر لكي يثير الناس. كم من أناس نافعين ماتوا بسببه!. أما ستنكا، فكان من صنف آخر. ليس بوجاتشيف هذا سوى حيوان قذر. هل لديك كتب أخرى على شاكلة ذاك الذي يدور حول موضوع ستنكا؟.. ابحث جيدا، ودع «مقار»الغبي عنا، فهو كتاب لا يثير أي اهتمام.. بل إنني لأوثر أن أسمعك تقرأ لي مرة أخرى كيف قتلوا ستنكا!

وكنت اذهب وكونوفالوف في أيام عطلاتنا إلى المروج الممتدة على الضفة الأخرى من النهر. فكنا نأخذ بعض «الفودكا» والخبز، ونصطحب كتابا، ثم ننطلق في الصباح «نشم الهواء» كما كان ككونوفالوف يطلق على هذه النزهات. وكنا نولع بالذهاب – بوجه خاص– إلى «مصنع الزجاج»، وهو الاسم الذي أطلق دون ما سبب واضح على مبنى قام في حقل خال، غير بعيد عن المدينة. وكان هذا المبنى من الطوب، ومكونا من ثلاثة طوابق، وذا سقف مقعر، ونوافذ محطمة، وقبو أرضي يمتلئ بماء نتن طيلة أشهر الصيف. وكان يستوي في الحقل خرابا، تزحف الطحالب على جدرانه، وتحيله إلى منظر كئيب.. شبح بغيض، يرمق المدينة خلال محاجر سوداء خالية من العيون، كما كانت نوافذه تبدو!.. ما كان أشبه ذلك المبنى بعاجز يحتضر، وقد طرد من المدينة!.. وكانت الفيضانات الجائحة تطغي عليه عاما بعد عام، ولكنه ظل قائما، تحيط به برك الماء التي كانت تصد رجال البوليس عن التردد عليه بكثرة. ومن ثم فقد غدا، رغم سقفه المهدم، مأوى لكل أنواع المتشردين الذين تحوم حولهم الشبهات.فكان يعمر دائما بالكثيرين منهم، يعيشون فيه بأسمالهم البالية، والجوع يكاد يقضي عليهم.. يتوارون من نور الشمس، فكأنهم القنابر في الأطلال!

وكنت وكانوفالوف نجد ترحيبا منهم دائما، إذ كان كل منا يحمل معه رغيفا أبيض – عند مبارحة المخبز – ونبتاع نصف لتر من الفودكا، وقدرا كبيرا من لحم الكبد والرئتين والطحال والقلب وما إليها.. وبهذا كنا نقدم

لـ«شعب الزجاج» - كما كان كونوفالوف يدعوهم! — وجبة شهية لا تكبدنا أكثر من روبلين أو ثلاثة روبلات.. وكانوا، في مقابل ذلك، يروون لنا قصصا تمتزج فيها الحقيقة الرهيبة، المثيرة، بأشد الأكاذيب ظهورا وافتضاحا.. كانت كل قصة منها عبارة عن قطعة من «الدانتيلا» السوداء (الحقيقة) موشاة بخيوط ذات ألوان زاهية (الأكاذيب).. وكانت هذه «الدانتيلا» تلتف حول القلب والعقل، فتخنقهما في أشكالها المتعددة المتباينة!.. ولقد ازداد «شعب الزجاج» تعلقا بنا — بطريقتهم الخاصة — وكثيرا ما كنت اقرأ لهم، فكانوا يصغون في انتباه واستيعاب!

وكنت أذهل لما كان يبديه هؤلاء الناس من معرفة عميقة بالحياة، وهم الذين نبذتهم الحياة.. فكنت أصغي مشوقا الى قصصهم.. كذلك كان كونوفالوف يصغي، ولكن. لكي يعارض آراءهم الفلسفية ويستدرجني إلى الجدال. فإذا روى أحد هؤلاء «المخلوقات» العراة ذوي السحن التي توحي للمرء بأن من الخير له أن يظل بمناي عنهم.. إذا روى أحدهم قصة حياته، وكيف انهارت هذه الحياة — هي قصة كانت تنقلب، بلا استثناء، إلى خطاب دفاع عن النفس — فان كونوفالوف كان يبتسم ويهز رأسه.. وكانوا يلاحظون ذلك، فيقول صاحب القصة متسائلا:«ألست تصدقني يا ساشا؟»

- إنني أصدقك طبعا، فمن واجب المرء أن يصدق ما يقوله أي رجل!..إن من واجبك أن تصدقه وأن تصغي إليه، وأن تحاول أن

تعرف ما يحمله على الكذب. فان أكاذيب أي رجل قد تكشف لك أحيانا عن معدنه، أكثر مما تكشف الحقيقة.. ثم، ما هي حياتنا، لو انك أوغلت في البحث عن حقيقتها.. مجرد شيء قذر، نحاول أن نخفيه بنسج الأكاذيب حوله.. أفتراني أصبت في قولي؟

فيجيب محدثه: «أصبت..ولكن، لماذا كنت تهز رأسك أذن؟»

– لأنك لا تنظر إلى الأمور نظرة صحيحة، فأنت تتكلم وكأنما لم تكن أنت الذي صنعت الحال التي أنت عليها، وإنما صنعها شخص آخر..فلماذا تركته يصنعها؟ لماذا لم تناضل؟

..أننا دائما نشكو من الغير، ولكننا بشر مثلهم، ألسنا كذلك؟.. فكأننا أيضا عرضة لأن يشكو منا الغير.. وإذا كان ثمة من يعترض طريقنا دائما، فلابد أننا أيضا نعترض طريق غيرنا..أليس الأمر كذلك؟..كيف تفسرون الوضع أذن؟

وكانوا يجيبون عن هذا التساؤل قائلين:«يجب أن تتغير الحياة ويعاد تنظيمها لينفسح المجال لكل أمريء، ولكى لا يعترض أحد طريق أحد!» وهنا كان كونوفالوف يسألهم متحديا: «ومن الذي يحدث هذا التعديل؟»..ثم يبادر إلى الإجابة قبل أن يسبقه إليها أحد: «نحن..نحن أنفسنا. ولكن، كيف نغير الحياة إذا كنا لا ندري السبيل إلى ذلك؟..إذا كنا لا نستطيع أن نجعل من حياتنا شيئا نافعا ذا قيمة؟..إننا لن نلبث أن

نجد أن ليس هناك من نلجأ إليه سوى أنفسنا..وفيما يتعلق بأنفسنا..آه، إننا جميعا ندري ما نحن عليه!»

وكانوا يحتجون على منطقة، ويعارضون، ويحاولون أن يلتمسوا الاعذار لأنفسهم، ولكنه كان يصمد في موقفه، ويتشبث برأيه، فكل إنسان مسؤل عما صار إليه، وليس سواه الملوم على الفشل والخيبة اللذين يمنى بهما!..وكان من المستحيل زحزحته عن موقفه، كما كان من المستحيل قبول رأيه في الناس..كانوا الملومين، ولكنهم كانوا في رأيه قادرين على أن يعيدوا تشكيل الحياة بحيث يحظون جميعا بالحرية.. وإن كانوا – من ناحية ثالثة – قوما ضعافا، خائرين، متخاذلين، لا يجيدون شيئا سوى الشكوى..شكوى بعضهم من بعض!

وكثيرا ما كانت هذه المجادلات تبدأ مع الظهر، فلا تنتهي إلا في منتصف الليل، وأضطر وكونوفالوف إلى مبارحة «شعب الزجاج»في الظلام الدامس، فنخوض الوحل حتى الركب.. ولقد كدنا مرة نفرق في حماة، كما قبضت الشرطة علينا في مرة أخرى، فقضينا الليل في قسم البوليس مع حوالي عشرين فردا من أهل «مصنع الزجاج»اللذين كانوا مثار الشبهات. وكنا لا نجد من أنفسنا ميلا في بعض الأوقات إلى الفلسفة، فكنت وإياه نمضي في سيرنا بعيدا عن المراعي والمروج الممتدة على الضفة الأخرى للنهر، حتى نصل إلى عدد من البحيرات الصغيرة العامرة بأسماك ضئيلة الحجم كانت سيول الربيع تحملها إليها. وكنا لمجرد الرغبة في استجلاء جمال

المنظر نوقد نارا في الأدغال الممتدة على طول شاطئ إحدى هذه البحيرات، وننصرف إلى القراءة أو إلى الحديث عن الحياة. وكان كونوفالوف يقول أحيانا، وهو مستغرق في أهواء خياله: «لنكتف بالتطلع إلى السماء يا مكسيم!»

ومن ثم كنا نستلقي على ظهرينا، ونحملق في القبة الزرقاء التي كانت تعلونا بلا قرار. وكنا نفطن في البداية إلى حفيف أوراق النبات، وخرير المياه، ونحس بالأرض تحتنا، ولكن السماء الزرقاء كانت لا تلبث أن تبدو وكأنها تشدنا إليها، فنفقد كل شعور بالكائنات المحيطة بنا، وكأننا ارتفعنا عن الأرض، ورحنا نسبح في الفضاء الشاسع في شبه غيبوبة فكرية كنا نخشى أن نعكر صفوفها بكلمة أو حركة!

وهكذا كنا نقضي الساعات راقدين، حتى إذا عدنا إلى العمل عدنا بقوى جسدية وروحية متجددة، منتعشة! فقد كان كونوفالوف يكن للطبيعة حبا عميقا، متغلغلا، وكان إذا ما خرجنا إلى الحقول أو إلى النهر يستسلم إلى نوبة من الهدوء واللطف تضاعف من مشابهته للطفل.وكان بين الفينة والفينة يقول في زفرة عميقة، وهو يتطلع إلى السماء: «آه.. هذا هو الشيء الذي أنشده!».. وكان في هذه العبارة الوحيدة من التفكير والشعور ما يفوق كثيرا من القصائد، لاسيما تلك التي لم يكن مصدر الوحي فيها سوى رغبة الشاعر في أن يتطلع اليه الناس كملهم مرهف

الحس.. وبذا لم تكن قصائده نابعة عن أعجاب صادق بمفاتن الطبيعة. ذلك لأن الشعر يفقد بساطته العلوية إذا ما اتخذ حرفة!

وهكذا توالت الأيام لشهرين، قمت خلالهما مع كونوفالوف بكثير من المناقشات، والقراءات وكنت كثيرا ما أقرأ له «نشأة ستنكا رازين»حتى أصبح في وسعه أن يرويها بلغته، صفحة صفحة، من البداية حتى النهاية. فقد أصبحت بالنسبة إليه كالخرافة الممتعة بالنسبة للطفل، فكان يسمي الأشياء التي يستعملها في عمله بأسماء الشخصيات المتباينة في الكتاب! وحدث ذات مرة أن سقط وعاء عن الرف وتحطم فصاح مغضبا: «ألا لعنة الله عليك يا كابتن بروزورفسكى».. فإذا أبطأ العجين في الاختمار، سماه «فرولكا»، باسم بطل متخاذل ..أما الخميرة فقد أصبح يدعوها «أفكار ستنكا»، بينما كان اسم «ستنكا» ذاته، يطلقه على كل شيء جليل، فذ، كتب عليه القدر أن ينتهي إلى فشل!

ولم يكن يرد لكابيتولينا أي ذكر..فقد أرسل لها النقود عن طريق «فيليب»، وسأله أن يكفلها لدى البوليس، ولكنه لم يتلق ردا ما من «فيليب» أو منها. إلى أن حدث فجأة ذات مساء ونحن نعد العجين لندفع به إلى الفرن، أن فتح باب المخبز، وتصاعد من جوف المدخل الرطب المعتم، صوت أنثوي عميق، يقول: «من فضلك!».. وكانت اللهجة تجمع بين الخجل والارتباك، فسألت القادمة: «من الذي تريدين؟». وترك كونوفالوف طرف حامل الخبز يهوي إلى الأرض، وبدأ

يجمع أطراف لحيته في حيرة. بينما عادت القادمة تتساءل: «هل يعمل هنا كونوفالوف الخباز؟»

وكانت إذ ذاك تقف في المدخل، وقد تساقط ضوء المصباح المعلق على رأسها مباشرة، فإذا به ملتف في شال من الصوف الأبيض، أطل من بين ثناياه وجه جميل مستدير، ذو أنف دقيق أشم، وخدين مستديرين تبدو خلالهما غمازتان إذا ما انفرجت الشفتان الشديدتا الحمرة عن ابتسامة. وأجبت: «أجل». وإذا ذاك صاح كونوفالوف في فرح: «أجل، أجل!». وترك الطرف الآخر لحامل الخبز يهوي، ثم اتجه نحوها بخطوات واسعة، فهتفت وهي تشهق إذ رأته «ساشا» وأحاط كل منهما صحبه بذراعيه، وقد انحنى كونوفالوف ليقترب رأسه من رأس الفتاة، وراح يقول في شوق وهو ما يزال عند المدخل، وذراعاه تحيطان بكتفيها وخصرها: «كيف حالك؟ ومتى جئت إلى هنا؟. أأنت الآن حرة؟ حسنا!.. هل تبينت صدق ما أنبأتك به؟.. الآن تمتد الطريق أمامك واضحة، ممهدة، فسيري قدما ولا تخشى شيئا!»..ثم التفت نحوى قائلا: «قم وحدك بالعمل اليوم يا مكسيم، إذ سأعني أنا بالسيدة. أين تزمعين الإقامة يا كابا؟

– هنا..معك!

– هنا..إنك لا تستطيعين الإقامة هنا، فهذا المكان معد للخبز، ثم إن غاية ما في الأمر إنك لا تستطيعين الإقامة هنا، فإن مخدومنا

رجل جد صارم. يجب أن نأويك في مكان آخر الليلة.. ربما وجدنا لك مكانا في فندق.. هيا، تعالي.

وخرجا، فمكثت أعني بأعداد الخبز وإنضاجه، غير متوقع أن يعود كونوفالوف قبل الصباح. بيد أنه عاد بعد ثلاث ساعات لفرط دهشتي..وتضاعف عجبي عندما وجدته – لأول نظرة إلى وجهه – بادي الإعياء والتجهم، بدلا من أن يكون مشرق الأسارير، سعيدا،كما كنت أحسبه. لذلك سألته – وأنا حائر – عما كان قد ألقى بصديقي إلى هذه الحال التي لا تناسب الظروف: «ما الذي جرى؟». فأجاب في رجوم: «لا شيء». ولم يلبث بعد لحظة أن بصق، فقلت مصرا على أن أعرف ما حوله: «ولكن، مهما تكن...»، فقاطعني وهو يستلقى على الأريكة الخشبية، قائلا في اكتئاب: «ماذا يعنيك؟.. مهما تكن، مهما تكن.. مهما تكن فإنها امرأة!»

واقتضاني حمله على التفسير جهدا كبيرا. إذ قال في النهاية ما نصه تقريبا: «أقول لك أنها امرأة.. ولو لم أكن أحمق غبيا لما حدث كل هذا.. أتفهم؟.. إنك لا تفتأ تقول إن النساء مخلوقات آدمية مثلنا. أنهن حقا يسرن على قوائمهن الخلفية (الأقدام)، وهن حقا لا يتغذين على الأعشاب، كما أنهن يعرفن كيف يتكلمن ويضحكن، ولكنهن مع ذلك لسن مخلوقات آدمية من نوعنا.. لماذا؟.. لست أدري. كل الذي أدريه أنهن لسن من صنفنا.. خذ «كابيتولينا» هذه مثلا. لقد قالت: «أريد أن

أعيش معك كزوجة لك.. أريد أن أتبعك ككلبة!»، فهل سمعت خطلا يفوق هذا؟.. فقلت لها: «اسمعي يا حبيبتي، إنك تهذين.. احكمي بنفسك..كيف يتسنى لك أن تعيشي يوما معي؟..أنني – قبل كل شيء – سكير. وثانيا، أنا لم أوت سقفا آويك تحته.. ثم إنني – ثالثا – جواب آفاق، لا أقوى على العيش طويلا في مكان واحد..»، وهكذا مضيت في تعداد الأسباب، ولكنها صاحت: «فلتذهب الخمر الى الجحيم.. إن كل العمال سكيرون، ولكنهم مع ذلك متزوجون.أما عن السقف الذي يظللك، فلو أن لك زوجة لصار لك سقف، وإذ ذاك لا تعود بك رغبة في التشرد والترحال».. فقلت: «لا يا كابا، إنني لا أصلح لهذا اللون من الحياة، ولن أصلح له يوما ما». بيد أنها قالت: «إذن سألقي بنفسي في النهر». فقلت: «يا لك من حمقاء صغيرة». وإذ ذاك راحت نصب سخطها على رأسي: «أيها الخنزير، الشرير.. أهكذا تخدعني؟.. يا لك من قملة طويلة السيقان!»، واسترسلت في السباب حتى كدت أفر من وجهها، وإذ ذاك انخرطت في البكاء. وأخذت تبكي وهي سادرة في لومي: «لماذا حملتني على المجيء إلى هنا ما دمت لا تريدني؟.. لماذا جعلتني أترك المكان الذي كنت فيه؟.. وما الذي أفعله بنفسي الآن، أيها الأحمق اللعين؟».. حسنا، ما الذي ترى في وسعي أن أفعله من أجلها؟»

وسألته: –فلماذا إذن حملتها على المجيء إلى هنا؟

– لماذا؟.. يا لك من شخص عجيب،لأنني كنت أرثى لها.. أي امرئ خليق بأن يشعر بالأسى إذا ما رأى شخصا يغوص في الطين.. أما إذا تطور الأسى إلى درجة أن أربط نفسي إلى هذا الشخص، فهذا ما لن تراه مني في عمرك كله!.. لن أوافق قط على أمر كهذا!.. أي رب أسرة أصير؟ لو أن هذه هي الغاية التي أتوق إليها، لكنت قد تزوجت منذ زمن طويل، فما أكثر المناسبات التي عرضت لي.. وما أكثر الزيجات الدسمة التي صادفتني. ولكن أنى لي أن أقدم على شيء فوق طاقتي؟.. إلا أنها تبكي طيلة الوقت، وهذا أسوأ ما في الأمر طبعا، ولكن ما الذي أملكه لها؟.. أنني لا أستطيع أن أتزوج» وهز رأسه يؤكد العبارة التي أطلقها بلهجة حزينة: «لا استطيع أن أتزوج!». ثم نهض عن الأريكة، وراح يتحسس لحيته بيديه، وهو يذرع أرض المخبز، منكس الرأس، يرسل بصاقه بين حين وآخر كدليل على اشمئزازه. وأخيرا قال: «مكسيم!».. وكان في لهجته رجاء وضراعة، وهو يسترسل قائلا: «لعلك تقبل أن تذهب فتخبرها بجلية الأمر.هه؟..كن طيبا واصنع هذا الجميل!»

فسألته: «وما الذي أقوله لها؟»

قال: «قل لها الحقيقة بحذافيرها.. قل إنني لا أستطيع الزواج، لأنه لا يتوافق وطبيعتي..أو، قل لها.. قل إأنني مصاب بداء!».

فضحكت قائلا: «ولكن هذا غير صحيح!»

– لا، ولكنه عذر صالح، أليس كذلك؟.. إلا لعنة الله على الأمر كله.. يا له من مأزق!.. ما الذي أفعله بزوجة في هذه الدنيا؟!

وطوح بيديه في قنوط واضح، مشيرا إلى أنه لا يستطيع أن يتخذ لنفسه زوجة. ومع أن الطريقة التي شرح بها قضيته كانت مضحكة، إلا أن الجانب الأليم منها جعلني أتساءل ما الذي سيكون من أمر الفتاة؟.. وظل يذرع المكان، وهو يتكلم وكأنه يخاطب نفسه: «ثم إنني لم أعد أحبها..ولا أتفه الحب. لسوف تعمل على أن تشدني إليها، وعلى أن تمتص قواي. إنها تحسب أنها وجدت في زوجا.أف لها!.. إنها ليست ذكية، ولكنها ماكرة!» ولم يكن ثمة شك في أن هذه الأفكار إنما واتته بإيحاء غريزة حب التنقب متحررا من كل قيد.. كانت هذه الغريزة تدافع عن نفسها..كان حب الحرية الجامح يشعر بالخطر الذي يتهدده!

وأخذ كونوفالوف يقول في زهو: «ولكنني لا أستدرج بمثل هذا الطعم!.. إنني سمكة كبيرة لعمر الحق!..لسوف أريها، و.. و.. لم لا أفعل؟».

ووقف في وسط المكان مفكرا، وعلى شفتيه ابتسامة تتراقص. وحاولت أن أعرف ما انتهى اليه رأيه، وأنا أشهد دلائل النشاط تطفح على أساريره. وفجأة قال: «مكسيم..لنرحل من هنا!»

وكان هذا بعيدا عن كل توقع، إذ كنت قد رسمت بعض خطط تعليمية أدبية، تتركز كلها حوله.. كنت أرجو أن أعلمه القراءة والكتابة،

وأن أنقل إليه كل ما حصلت من معرفة حتى ذاك الوقت. وكان قد وعد بأن يبقى طيلة الصيف، الأمر الذي بدا أنه يسهل علي مهمتي، ولكن.. ما العمل الآن؟

وقلت له أخيرا: «إنك تهذي».

فرد قائلا: «إذن فماذا تراني أفعل؟»

وحاولت أن أنبئه بأن نوايا «كابيتولينا» لم تكن جدية لي الدرجة التي كان يخالها، وأن من الجدير به أن ينتظر ليرى ما يحدث. والواقع أنه لم تكن ثمة حاجة إلى الانتظار. ففيما كنا جالسين على الأرض، في مواجهة الفرن، وظهر إلي النافذة، وقد اقترب الليل من الانتصاف، وانقضت ساعة ونصف الساعة على عودة كونوفالوف.. فيما كنا كذلك، إذا بصوت زجاج يتهشم على حين غرة، ثم أقبل حجر كبير مارقا إلى الأرض. وقفزنا مذعورين وهرعنا إلى النافذة، وصاح شخص ما: «أخطأت!.. لم تصب الهدف.. أولوو.. لو أن...»، فانبعث صوت أجش عميق: «هلمي.. هلمي.. لسوف أسوي الحساب معه فيما بعد».وانساب خلال زجاج النافذة المهشم، ضحك هستيري.. ضحك امرأة ثملة، يائسة..ضحك رفيع حاد، يثير غيظ المرء.

فقال كونوفالوف في أسى: «إنها هي!» ولم استطع أن أرى شيئا اللهم إلا ساقين تتأرجحان عند فراغ النافذة..وكانتا تحاولان أن تتدليا، فيرتطم الكعبان بالحائط، وكأنهما يبحثان عن شيء يستقران عليه!.. وتمتم الرجل:

«هيا!»، فصاحت به: «دعني!.. كف عن جذبي!. دعني أقول ما بنفسي!.. وداعا ياساشا!.. وداعا، يا..»، ولا سبيل إلى ذكر ما تلا ذلك من نعوت. وازددت اقترابا من النافذة لا تمكن من رؤية «كابيتولينا»، فإذا بها تنحني على النافذة متشبثة بحافة الرصيف، تحاول أن ترى ما بداخل المخبز، وقد تهدل شعرها على صدرها وكتفيها.. وكان شالها الأبيض قد انزاح عن رأسها، بينما انشقت ياقة ثوبها..

كانت «كابيتولينا» ثملة، وقد أخذت تترنح من جانب إلى آخر، وحلقها يغص بالفواق «الزغطة»، وبالسباب، وبالصراخ المختبل.. وكانت ترتجف، وقد تمزقت ثيابها، وتضرج وجهها وبللته الدموع.. وكان ثمة رجل طويل ينحني فوقها، وهو لا ينفك يصيح بها: «هيا!»، وقد وضع يدا على كتفها، واليد الأخرى على جدار المبنى..

– ساشا!.. لقد كنت سبب دماري، فتذكر هذا! ليلعنك الله أيها الشيطان ذو اللحية الحمراء! ألا ليتك لم تولد لقد كنت أعتمد عليك، فإذا بك تبصق في وجهي، حسنا، لابد من أن نسوي الحساب يوما!.. أتختفي مني؟ لعلك خجل من نفسك أيها الوحش ذو الوجه الخنزيري.. ساشا!.. يا حبيبي!».

وقطع عليها كونوفالوف حديثها، قائلا في صوت محتبس، وقد ركع على الأريكة الخشبية المواجهة للنافذة: «لست مختبئا من أحد.. لست مختبئا! وما ينبغي أن تزعمي شيئا من هذا القبيل، لقد أردت أن أعاونك،

وكنت أخال أنك ستجنين خيرا من وراء مساعدتي، ولكنك أفسدت كل شيء!»

– ساشا، هل لك أن تقتلني؟

– لماذا أسرفت في الشراب؟.. منذا الذي يعرف ما قد يسفر عنه الغد؟

– ساشا!..ساشا!..

وانبعث صوت الرجل الثمل الذي كان يرافقها، قائلا:

«كفي..تعالي!»

– أيها الفاسد!..لماذا تحمل نفسك على اصطناع الوقار؟

– ما هذا الشجار؟.. من هؤلاء؟

وقطع الحديث صفير الشرطي الساهر على الحراسة، فخفتت الأصوات، ثم عادت الفتاة تقول: «لماذا وثقت بك أيهاالشيطان؟».. وانبعث شهقاتها بكية. وفجأة ابتعدت ساقاها، ثم سمعناها تجر قدميها وتختفي في الظلام. وتلا ذلك أصوات غير واضحة، وجلبة وعراك. وصاحت الفتاة في استماتة: «لا أريد الذهاب إلى مركز الشرطة!». ولكن دوى خطوات ثقيلة انبعث على الرصيف، أعقبه صفير، وزمجرة، وصراخ: «سا – ا–ا –شا!..ساشا.. يا حبيبي!». وبدا النداء كصوت شخص يعاني

عذابا وحشيا.. وما لبث كل هذا الضجيج أن ابتعد في جوف الليل، وازداد خفوتا شيئا فشيئا، حتى تلاشى كما يتبدد حلم بغيض!

وكنت وكونوفالوف مشدوهين لما جرى، حتى أننا ظللنا نحدق في جوف الظلام، عاجزين عن أن ندفع عنا تأثير الصرخات، والشهقات، واللعنات، والزمجرة، وصياح الشرطي. وخيل إلى أنني عاجز عن أن أقنع نفسي بأن كل هذا جرى فعلا.. فما كان أقصر الوقت الذي مثلت فيه هذه المأساة الشديدة التأثير!.. وقال كونوفالوف أخيرا في اكتئاب واقتضاب: «إنها النهاية!». وأخذ يصيخ السمع خلال سكون الليل المظلم، وهو يحدق في الظلام في سكينة قاسية، صارمة. وسكت لحظة، ثم عاد يقول وهو لا يزال راكعا على الأريكة، معتمدا بمرفقيه على حافة النافذة: «يا للأقوال التي وجهتها أل!.. إذن فقد ألقى الشرطي القبض عليها.. وهي ثملة.. ومع ذلك الوغد، الثمل!.. لم تستغرق وقتا يذكر في تقرير مصيرها!» وأرسل زفرة عميقة، ثم بارح الأريكة، وجلس على أحد أكياس الدقيق، محتويا رأسه بين راحتيه، وراح يتمايل من جانب إلى آخر. ثم قال وهو يصر على أسنانه: « نبئني يأمكسيم ما الذي جرى؟ فسره لي، وقل لي ما الذي أفعله إزاءه!».. وحدثته!.. قلت إن على المرء أن يعرف حقيقة ما يبغي، قبل أن يقدم على أي تصرف، وأن يتبصر ما قد تقوده إليه أية خطوة، قبل أن يقدم عليها!.. وإذ لم يكن قد حاول أن يعرف، ولا حاول أن يتبصر، لذلك كان وزر ما حدث واقعا عليه!.. وكانت قاسيا في

لومي له، اذ كان نداء الرجل الثمل وصرخاتها ما تزال ترن في أذني، فلم أرحم صديقي!.. وراح من ناحيته يصغي وهو منكس الرأس، فلما فرغت، تطلع إلي، فتبينت أنه مأخوذ، وجل.. وقال متلعثما: «لا حيلة فيما جرى!ما الذي سيجري بعد ذلك؟. ما الذي ينبغي أن أفعله؟.. ما الذي ينبغي أن أفعله معها؟».. وكان في اعترافه بذنبه شيء من سذاجة الطفل وحيرته، مما جعلني أشعر لفوري بالأسف من أجله، والندم على غلطتي في الحديث إليه!

وسألني وهو نادم راغب في التوبة:«لماذا حملتها على الحضور إلى هنا؟ اللعنة على الأمر كله!.. ما الذي تراه يساورها الآن بشأني؟ سأذهب إلى مركز الشرطة وأحاول اخراجها.. لسوف أقابلها، وأبذل ما في وسعي.سأخبرها.. متعللا بأية علة. هل أذهب؟». فقلت إنني لا أرى أية جدوى من مقابلته إياها، إذ ما الذي لديه ليقوله لها؟.. فضلا عن أنها كانت ثملة، ومن المحتمل أنها نامت في هذه الاثناء. ولكنه كان قد عقد العزم على الذهاب.. ومن ثم قال: «لسوف اذهب.. إنني رغم كل شيء، جد راغب في مساعدتها.إن أولئك الشرطة لن يعنوا بها مطلقا. لسوف أذهب، وعليك أن تعنى بالعمل هنا لن ألبث أن أعود!»

وشد طاقيته على رأسه وانصرف، ناسيا أن يرتدي الحذائين الباليين اللذين كان يعتز بهما، بينما أتممت أنا عملي ثم نمت. فلما استيقظت في الصباح والتفت – كالعادة – إلى الركن الذي اعتاد كونوفالوف أن ينام

فيه، لم أجده هناك. ولم يظهر إلا حوالي الغروب، وكان واجما، أشعث، تتخلل جبينه غضون عميقة، ويغيم على عينيه الزرقاوين ظل قاتم. واتجه إلى المعاجن دون أن ينظر إلى، فتفقد ما أعددت، ثم استلقى على الأرض دون أن ينبس ببنت شفة، فقلت اسأله: «هل رأيتها؟»

– هذا ما ذهبت لأجله..أليس كذلك؟

– حسنا، فما الذي حدث؟

فقال في اقتضاب: «لا شيء!». وبدا جليا أنه لم يكن راغبا في الحديث، فلم أرهقه بالأسئلة، مطمئنا إلى أن هذا الاكتئاب مصيره إلى الزوال حتما. واقتصر حديثنا طوال اليوم التالي على كلمات موجزة كان العمل يتطلبها. وكان طيلة الوقت يغض بصره إلى الأرض، والظل القاتم ما يزال يغيم على عينيه، كما كان عندما عاد. وأخذ يعمل في تباطؤ، وفي غير تحمس، وأفكاره تثقله. فلما دفعنا إلى الفرن بالدفعة الأخيرة من الخبز في ذلك المساء، وخشينا أن ننام حتى لا تحترق، قال لي: «اقرأ لي شيئا من كتاب ستنكا»

وشرعت أقرأ وصف تعذيب ستنكا وإعدامه، إذ كان هذا هو الجزء الذي يهيج عواطفه، فتمدد مستلقيا على الأرض، ومتطلعا بعينين لا تطرفان نحو السقف المحدودب المكسو بالسناج. وما ليث أن قال في تباطؤ: «أذن، فبهذه الطريقة تخلصوا من الرجل. ومع كل هذا، فقد كانت الحياة إذ ذاك أسهل مما هي اليوم.. كانت أكثر هذا، فقد كانت الحياة إذ

ذاك أسهل مما هي اليوم..كانت أكثر حرية!..كان ثمة شيء تنفق فيه طاقتك من القوة، على الأقل. أما اليوم، فكل شيء هادئ، وأدع.. حد وأدع، لو انك تأملته بنظرة مجردة!.. كتب، وعلم، وما إلي ذلك، فلا قتال ولا صراع!.. ولكن المرء يعيش في وحدة، فليس ثمة من يقف إلي جانبه ولا من يعني به!.. ومن المحظور أن ترتكب ذنبا، ولكن من المستحيل أن لا تذنب.. ومن ثم فهناك نظام يحكم ما هو خارج النفس البشرية، وأن كان ثمة تضارب في جوفها..على أنه لم يعد في وسع إنسان أن يفهم أنسانا آخر!»

فسألته: «وكيف حالك مع كابيتولينا؟». فأجاب وهو ينتفض: «ماذا؟.. مع كابا؟.. لقد انقضى كل شيء!». وأشار بيده يؤكد قوله، فسألته: «أذن فقد قطعت الروابط؟» فقال: «لست أنا الذي قطعها، وإنما هي نفسها!». وتساءلت: «وكيف؟»

– ببساطة.. أصرت على غايتها، ومن ثم عدنا إلى ما كنا عليه. كل ما هنالك أنها لم تكن تعاقر الخمر، فأصبحت تفعل. ألا استخرج الخبز من الفرن، لأنني سأنام؟

وساد الهدوء المخبز. وكان المصباح يرسل دخانا من وقت إلى آخر، إذ كانت ثمة ريح باردة.. وأخذت قشرة الخبز الناضج تبعث صوتا وهي تتشقق على الأرفف.

ووقف العسس لدى نافذتنا في الخارج، يتحدثون.. وكان ثمة صوت آخر ينساب بين الفينة والفينة، لعله كان صرير اللافتة المعلقة في الخارج.. وربما كان أنين شخص ما!

وأخرجت الخبز من الفرن، ثم استلقيت، ولكنني لم أجد إلى النوم سبيلا. وقنعت بالاستلقاء، ورحت أنصت إلى الأصوات التي كانت تنساب في الليل، وقد أطبقت جفوني على عيني في نصف إغماضه. وفجأة، رأيت كونوفالوف ينهض في هدوء، ويسير إلى الرف فيتناول كتاب كوستومارف، فيفتحه ويقربه من عينيه. ولمحت إمارات التفكير على وجهه واضحة، فراقبته، وإذا به يحرك أصبعه على السطور المطبوعة، وهو يهز رأسه. ثم قلب الصفحة، وراح يتأملها في اهتمام، وما لبث أن نظر نحوي.. وكان يسيطر على وجهه المكدود شيء غريب.. شيء كثيف..شيء متفحص، متسائل، وظل يتأملني طويلا بنظرة ما رأيته قط يصدر مثلها من قبل!.. ولم أقو على كبح فضولي، فسألته عما كان يفعل. وإذ ذاك، قال كالمعتذر: «ظننتك نائما» ثم أقبل والكتاب في يده، فجلس بجانبي، وقال مترددا: «اسمع، هاك ما أردت أن أسألك عنه. أليس ثمة كتاب يبين قواعد الحياة؟..يعلمك كيف تتصرف؟.. إن الذي أصبو إلى معرفته هو: ما الذي يعتبر فعله خطأ، وما الذي يعتبر صوابا؟.. إن الأشياء التي آتيها تسقمني وتحيرني. فهي تبدأ بداية طيبة، ولكنها تنتهي إلى سوء!خذ مسألة كابا

مثلا.. وأرسل زفرة حرى، ثم قال متوسلا: «أرجو أن تحاول العثور على كتاب كهذا فتقرأه لي».

وصمت برهة، ثم قال: «مكسيم!»، فقلت: «ماذا؟»

- آه من تلك الأقوال التي رمتني بها كابيتولينا!

- ما لها؟..ألا انسها!

- لم يعد للأمر أهمية الآن بالطبع، ولكن قل لي..هل كانت على حق فيما قالت؟

وكان السؤال محرجا، ولكنني لم ألبث أن قلت – بعد لحظة من التفكير – إنها كانت على حق.. فاستلقى على الحصيرة التي كانت مفروشة على الأرض، وتقلب عدة مرات، ثم نهض فأشعل سيجارة، وجلس عند النافذة. وما لبث أن عاد فاستلقى على الأرض. وغلبني النوم في النهاية. فلما استيقظت، كان قد غادر المخبز ولكنه أقبل في المساء، كانت تكسوه طبقة من التراب.. وكان في عينيه الزرقاوين تعبير جامد. وطوح بطاقتيه على الرف، وتنهد، ثم جلس بجواري، فسألته: «أين كنت؟».

وأجابني: «ذهبت أزور كابا .. لقد انتهى كل شيء أيها الزميل، كما قلت لك"

قلت محاولا أن أسري عنه: «ليست ثمة حيلة مع من هن على شاكلتها!»، واتبعت ذلك ببضع كلمات عن حكم العادة، وبعض عبارات

تناسب المقام. وظل كونوفالوف جالسا يحدق في الأرض، دون أن ينبس ببنت شفة، حتى إذا فرغت من حديثي قال: «لا، انك مخطئ، فليس هذا لب المسألة. الحقيقة أنني كالوباء!.. إنني لم أخلق لأعيش في الدنيا، لأنني انفث سما، فما أن يقربني امرؤ حتى يتسمم!.. إنني لا أمنح أحدا غير الأسى. ولو أنك تأملت حياتي جيدا، لتساءلت معي: من الذي أسعدته يوماً؟.. إنني لم أسعد أحدا، رغم أنني عرفت أناسا كثيرين في حياتي.. إن في كياني شيئا فاسدا!». .فقلت:«هراء!». ولكنه هز رأسه شأن المقتنع، وهو يقول:«بل هي الحقيقة»

وحاولت أن أبرهن له أنه على خطأ، ولكن ما قلته لم يزد إلا اقتناعا بأنه لم يكن يصلح لأن يعيش في الدنيا!

واعتراه بعد ذلك تغير سريع، شامل، فأصبح متراخيا، شارد البال، صامتا، ميالا إلى الواحدة.. وفقد اهتمامه بالكتب، ولم يعد يقبل على العمل بنفس الحماس القديم. وصار في أوقات فراغه يستلقى على الأرض، ويروح يحدق في السقف المحدودب. وغار خداه، وفقدت عيناه بريقهما الصبياني الصافي. وسألته مرة:«ماذا بك ياساشا؟».. فقال:«لقد بدأت النوبة تحتاجني، وسوف أسرف في تناول الفودكا.. إن جوانبي تحترق وكأنها تكتوي بنار. لقد آن الأوان، ولولا ما جرى، لكان في وسعي أن أقاوم فترة أخرى. لا بأس، ليكن ما يكون. ولكن، بماذا تفسر ما جرى؟ لقد حاولت أن أسدي خيرا إلى شخص، فإذا به ينقلب إلى العكس تماما. إننا حاجة إلي

قواعد ترشدنا إلي التصرف ياصاحبي. أفمن العسير حقا وضع هذه القواعد، حتى يكون تصرف الناس واحدا، وحتى يفهم أحدهم الآخر؟!.. كيف تتسنى مطالبة الناس بأن يعيشوا معا وهذا الفراغ الكبير قائم بينهم، يفصل كلا منهم عن الآخر؟.. أليس لديهم من العقل ما يرشدهم إلى أن عليهم أن ينظموا الحياة، وأن يستوثقوا من أن كل امرئ يعرف ما له وما عليه؟»

واستغرق في فكرة تنظيم الحياة إلى الحد الذي لم يحفل عنده بما رحت أقوله له. ولاحظت أنه أخذ يتحاشاني بعد ذلك. وفي ذات يوم، لم يكد يسمعني أعرض آرائي عن مقدرة الإنسان على إعادة تشكيل حياته وكنت أرددها عليه للمرة المائة حتى انفجر صائحا:

- اسكت! لقد سمعت هذا كله من قبل. ليس الذنب ذنب الحياة، وإنما هو ذنب الناس..إنهم العنصر الرئيسي.. أتفهمني؟ هذا كل ما في الأمر.. إن على الناس – وفقا لما تقول – أن يقبعوا ويمكثوا على ما هم فيه، حتى تتبدل الأحوال. ولكن، ل.. بدل الناس أولا.. حولهم.. أرهم كيف يتصرفون، وإذ ذاك يصبح كل شئ واضحا، وإذ ذاك لا يعترض كل منهم طريق الآخر. هذا ما يجب أن نفعله للناس..علمهم كيف يسيرون في الطريق الصحيحة؟

وكنت إذا هممت بأن أجادله، فقد زمام عواطفه، وأعرض، واكتفى بأن يقول:«آه، دعني وحيدا!» وغادر المخبز ذات مرة في المساء، فلم يعد

إلى العمل في تلك الليلة، ولا في النهار التالي، بل جاءني صاحب المخبز مهموما، وقال: «لقد عاودت النوبة ساشا، فهو جالس الآن في حانة«الجدار».. لابد لنا من أن نعثر على خباز آخر!»

– ربما نجا من هذه النوبة..

– لا أمل هناك، فأنا أعرفه!

وذهبت إلى «الجدار»، وهي حانة حفرت بمهارة في جدار قلعة قديمة، مما جعل صاحبها يخلع عليها هذا الاسم. وكانت أهم المعالم التي تمتاز بها هي أنها لم تؤت نافذة واحدة، بل كان الضوء ينفذ إليها خلال كوة في السقف. وكانت تعبق برائحة التراب، والجعة، والفودكا، كما أنها كانت دائما مزدحمة بأشخاص يثيرون الشبهات، اعتادوا التردد عليها حتى أصبحوا عملاء دائمين، يقضون أياما بطولها مستلقين بداخلها، في ارتقاب قدوم عامل عامر الجيب، ليظلوا يشربون على نفقته، حتى يبيع القميص الذي يستر جسمه!

وكان كونوفالوف يجلس إلى مائدة كبيرة في وسط الحانة، يحيط به ستة من «السادة» في أسمال بالية، ولهم وجوه تشبه وجوه الشخصيات التي وردت في قصص «هوفمان».. الجعة والفودكا، ويقضمون شيئا كأنه كتل من الطين. بينما راح هو يهيب بهم: «اشربوا يا صحاب.. أشربوا ما شئتم، فأنني أملك نقودا وثيابا تكفي للإنفاق على شرابنا ثلاثة أيام.. ولسوف

نشرب بها كلها و.. إلى الجحيم بعد ذلك!.. لست أريد أن أعمل هنا بعد الآن، ولست أريد أن أعيش هنا يوما آخر!»

فقال شخص من الجلوس:«إنها بلدة موبوءة!».. وصاح آخر متسائلا، وهو يتطلع إلى السقف: «العمل!»، ثم أردف بلهجة زاخرة بالتعجب: «وهل لهذا خلق الإنسان؟» وشرعوا يتحدثون جميعا، وفي آن واحد، محاولين أن يبرهنوا لكونوفالوف على أن له الحق الكامل في أن يشرب كيفما يشاء، بل وأنه مسوق بحكم القدر الى الشراب، والى الشراب معهم بالذات. وعندما لمحني كونوفالوف، هتف: «آه.. هاهو ذا مكسيم وقد تشبع ببخار الخبز.. تعال يا دودة الكتب، يازنديق.. خذ قدحا!..لقد هربت من السجن نهائيا يا صاحبي! إلى الجحيم!.. إنني أريد أن أغرق في الشراب ثانية حتى منابت الشعر في جسمي، ولن أكف عنه إلا عندما لا يتبقى لي سوى الشعر الذي يستر جسمي!..تعال، وانضم إلينا».

ولم يكن قد ثمل تماما بعد، فأومضت عيناه الزرقاوان انفعالا، وراحت اللحية التي كانت تغطي صدره –كمروحة من حرير!– تهتز مع ارتجاف فكه الأسفل. وكانت ياقة قميصه مفتوحة، كما كانت قطرات دقيقة من العرق تلمع على جبينه، وأخذت اليد التي قدم لي بها قدحا مليئا بالجعة تهتز..فقلت وأنا ألقي براحتي على كتفه: «أرم هذا من يدك يا ساشا، وتعال نخرج من هنا!».. فضحك قائلا: «أرميه؟.. لو أنك قلت هذا منذ عشر سنوات، لكان من المحتمل أن أرميه، أما الآن، فلا..ماذا أملك أن أفعل غير هذا؟..

أنني أشعر بكل شيء..كل شئ، وأتفه حركة، ولكنني لا أفقه شيئا، ولا أدري ما الذي ينبغي أن أفعل.. أؤكد لك أنني أشعر بكل شيء، ولذلك فأنا أعاقر الخمر، لأنني لا أجد شيئا آخر افعله..إليك..أشرب!» ورمقني زملاؤه في استياء ظاهر.. وراحت اثنتا عشرة عينا تتفحصني في عداء، كان التعساء يخشون أن أنتزع كونوفالوف من وسطهم، فأحرمهم من الفرصة التي كانوا ينتظرونها منذ زمن..وعاد كونوفالوف يتكلم، موجها الخطاب إليهم: «هذا زميلي.. شاب متعلم، لعنة الله عليه.. هل لك في أن تقرأ شيئا عن «ستنكا» هنا يا مكسيم؟.. أي كتب لديه يا أخوة أو، فلتحدثنا عن بيلا انه كتاب ملئ بالدم والدمع أيها الأخوة أن بيلا هو أنا! ألا تراه كذلك يا مكسيم؟.. وكذلك كان سيسويكا»..

وتطلع إلي بعينين مليئتين بالخوف، وارتجف فكه الأسفل بدرجة عجيبة. وأفسح زملاؤه مكانا لي حول المائدة، وهم كارهون، فجلست بجانب كونوفالوف، في اللحظة التي رفع فيها إلي شفتيه قدحا ملئ نصفه بالجعة، والنصف الآخر بالفودكا!.. وبدا أنه كان يريد بهذا المزيج أن يسكر نفسه في أقرب فرصة. فلما احتساه، تناول قطعة من المادة التي بدت لي كالطين – والتي تبينت أنها لحم مسلوق – وحدق فيها لحظة، ثم طوح بها إلي حائط الحانة. وأطلق أصحابه زمجرة خافتة، كقطيع من ذئاب جائعة، بينما قال هو: «أنني نفس ضائعة..لم قدر لأمي أن تنجبني في هذه الدنيا؟.. لا أحد يعرف!.. لماذا جئت إلى هذه الدنيا القاتمة، المزدحمة؟!..

وداعا يا مكسيم، ما دمت غير راغب في أن تتناول قدحا معي!.. لن أعود إلى المخبز. إن صاحب المخبز مدين لي ببعض المال، فخذه منه واحضره لي هنا..سأشرب به. بل لا، خذه واشتر به كتبا لنفسك..أفهمت؟.. إلا تريد؟..حسنا، لست مكرها..ولكنك ستكون خنزيرا إذا لم تفعل..ألا ابتعد عني! ابتعد عني كما أقول لك!» وطغى على عينيه وميض عدائي حين أزداد تأثرا بالشراب،

وأصبح زملاؤه على استعداد لان يمسكوا بطوقي، وأن يطرحوا بي إلي الخارج، ومن ثم غادرت الحانة قبل أن يجدوا فرصة لذلك. على أنني عدت بعد ثلاث ساعات، فإذا رفاق كونوفالوف قد تضاعفوا. وكانوا جميعا مخمورين، ولكنه كان أقلهم ثملا، وقد أخذ يغني، معتمدا بمرفقيه على المائدة، بينما علقت عيناه برقعة من السماء لاحت خلال كوة السقف. واستلقى السكارى في عدة أوضاع وهم ينصتون إليه، وقد أصاب بعضهم الفواق (الزغطة). وكان لكونوفالوف صوت قوى، يحتفظ بقوة نبراته اذا علا مع طبقات اللحن العليا.. وراح يسكب أحزانه نغمات صادرة عن شعور عميق، مسندا خده إلي راحته، مغمضا عينيه نصف إغماضه، وقد برزت تفاحة آدم جلية في عنقه.. بينما اتجهت إليه ثمانية وجوه ثملة، خلت أساريرها من أية بادرة للشعور، وران عليها الجمود.. وكانت الأصوات المنبعثة لا تتجاوز تمتمة أو فواقا بين وقت وآخر!.. وتهدج صوت

كونوفالوف، واستحال إلى أنين، ثم انقلب إلى شجن.. كان سماع ذلك الرجل وهو يردد الغناء الحزين كافيا لكي يفطر القلب!

وكانت الروائح الخانقة، ووجوه السكارى المجللة بالعرق، والمصباحان الزيتيان اللذان كانا يرسلان دخانا في المكان، والجدران المشوهة بالسناج، والأرض الطينية العارية، والظلال الكئيبة..كانت هذه كلها عوامل تبعث على السقم والضيق.. فكأنما كان المنظر يمثل مأدبة رهيبة أقامها رجال دفنوا أحياء في إحدى المقابر.. وأخذ واحد منهم يغني للمرة الأخيرة، مودعا السماء قبل أن يموت!..كانت أغنية صديقي مفعمة بالأسى القانط، واليأس الهادئ، والحنين الذي لا ينطفئ! وقطع أغنيته، وبسط لي يده قائلا: «أمكسيم هنا؟.. أتريد أن تصبح ياورا لي؟.. لقد أعددت كل شيء، فجمعت عصبة.. ها هم رجالي، ولن نلبث أن نجد عددا آخر.. أجل، لسوف نجد، فليس هذا بالأمر الشاق.. ولسوف ندعو بيلا وسيسويكا، فنغذيهما باللحم والثريد في كل يوم..أليس كذلك؟ هل اتفقنا؟.. إذن فاحضر معك بعض الكتب، حتى تقرأ لنا عن ستنكا والآخرين. آه يا صاحبي.. لقد سئمت كل شيء.. سئمت.. كل.. شيء!». ورفع قبضته ثم هوى بها بشدة على المائدة، فارتطمت الزجاجات والأقداح بعضها ببعض، واستوي زملاؤه جالسين في الحال، وامتلأت الحانة بالضجيج. وصرخ كونوفالوف: «اشربوا يا رفاق!.. افرقوا همومكم!.. اجرفوها!»، وسرت فوقفت عند المدخل، ورحت أصيخ

السمع إلي هذيان كونوفالوف، فلما شرع يغني من جديد، عدت إلى المخبز، تشيعني أصوات الأغنية الثملة، التي ظلت تتردد في سكون الليل أنينا وشهيقا وبعد يومين اختفى.!

لابد للمرء أن يولد في المجتمع «المهذب» الراقي، إذا شاء أن يعيش في هذا المجتمع طيلة حياته، دون أن يصبو إلى الفرار من عرفه الجائر – الذي اكتسب قداسته بفضل أكاذيب ضالة غدت مألوفة معتادة، أو للهرب مما يتصف به هذا المجتمع من غش بشع، وطائفية مقيتة، ورياء بغيض.. أي من باطل الأباطيل، الذي يبلد الأحاسيس ويفسد الفكر!..ولقد ولدت ونشأت خارج هذا المجتمع، وبفضل هذه الظروف الموقية، فإنني لا أستطيع أن أتناول جرعات كبيرة من المدينة دون أن أحس بضرورة الفكاك من أغلال هذا المجتمع، لكي أنشد التسرية – بين آن وآخر – وأتخفف من الرقي المعقد، الكريه! والحياة في القرية لا تقل أسى وثقلا على النفس عن الحياة بين المثقفين المهذبين، وخير ما تفعل في مثل هذه الأوقات، هو أن تلجأ إلى العيش في أدنى أحياء المدينة، حيث الحياة بسيطة وصادقة رغم الأقذار المحيطة بها.. أو أن تهيم في الطرقات، وتضرب في حقول وطنك.. وهي مغامرة منعشة إلى حد كبير، ولا تتطلب موارد أكثر من ساقين متينتين. ولقد خرجت منذ خمس سنوات في إحدى هذه المغامرات، فقادتني جولاتي في إقليم (الروس) المقدس، إلى (فيودوسيا) وكان العمل في أنشاء حاجز الأمواج في الميناء قد بدأ في ذلك الوقت،

فيممت شطر موقعه، على أمل أن اكتسب بعض المال. ووددت في البداية أن أتأمل موقع السد كما يتأمل المرء صورة، ومن ثم تسلقت تلا، ورحت أطل على البحر الجبار الذي يمتد إلى أقصى مرامي البصر، وعلى المخلوقات الضئيلة التي كانت تعمل في أنشاء الحاجز لكبح جماحه!

وكانت الصورة التي تراءت لي، صورة هائلة تمثل الجهد البشرى. فلقد حفر الشاطئ الصخري، وحفل بالأحجار، وآلات الحفر، والعربات، وكتل الأخشاب، وقضبان الحديد، وآلات دق أعمدة الأسس المسلحة (خوازيق الخرسانة)، والأدوات الآلية. وتناثر العمال، يروحون ويجيئون بين كل هذه المعدات. وكان أحد التلال قد نسف بالمواد المتفجرة، وانهمك الرجال في إزالة بقاياه بالمعاول، ليمهدوا طريقا لخط حديدي. وكان الاسمنت يعجن في أوعية هائلة، ثم يصب في قوالب يبلغ ارتفاع الواحد منها ستة أقدام، كانت تدلي في البحر، لإنشاء كتلة متينة تصد تيارات المد الجبارة.

وكان العمال يبدون – بالنسبة للتلال السمراء المحيطة بالموقع – كالأقزام الضئيلة.. وكالأقزام الدقيقة كانوا يعملون، تحت شواظ شمس الجنوب الحامية، وبين أكوام الصخر المهشم، وركامات الأخشاب، وقد بدوا – خلال سحب الأتربة – كما لو كانوا أطيافا.. وكان الهواء الراكد مفعما بطنين الأصوات البشرية، وجلبة العمل: رنين المعاول وهي ترتطم بالصخر، وصرير عجلات العربات، وتلك الهزات المكتومة الصادرة عن

آلات دق الأعمدة المسلحة، وعواء العمال وهم ينشدون أغنية «دوبينونشكا»، وأصوات الفؤوس وهي تشق الكتل الخشبية، والصرخات العديدة النبرات واللهجات، والتي كانت تنبعث من الإشكال الآدمية المتباينة الملبس..كل هذه كانت تضفى على المنظر حيوية نشيطة!

وفي ناحية من المكان، كان العمال يزأرون ويزمجرون بأصوات عالية، وهم يحاولون أن يدافعوا صخرة ضخمة..وفي بقعة أخرى، كان عمال آخرون يرفعون كتلة خشبية هائلة، وهم يصيحون بصوت مشترك: «واحد.. اثنان..ارفع!»، فيردد سفح الجبل المحفور صيحاتهم في صدى متداخل النبرات. وعلى طريق مؤلف من ألواح عريضة مشققة من الخشب، كان ثمة موكب بطئ من رجال انحنوا على عربات يدوية صغيرة محملة بالأحجار، بينما أقبل من الجانب الآخر رتل من العربات الفارغة، يسير في سرعة أبطأ من سرعة الموكب، وكأنما كان أفراده يطيلون من فرصة الراحة. وحول إحدى آلات دق أعمدة الخراسانة، وقف جمع من العمال المتبايني الملابس، وقد انبعث من وسطهم صوت عال، يردد:

– أف يا رفاق، انه حر جهنمي.

– واحد..اثنان..و..أرفعوا!

وانبعث ضجيج خافت من الرجال وهم يجذبون حبلا، فارتفعت الاسطوانة المعدنية للآلة في حركة انزلاقية، ثم هبطت في ارتطام شديد، هز الآلة كلها. وكانت أسراب العمال الذين بدوا ضئيلي الأجسام، سمر

الإشكال تنتشر في الأرض بين التل والبحر، تملأ الهواء غبارا وضجيجا، وتشيع فيه رائحة العرق الكريهة!.. بينما سار رؤساء العمال بينهم في معاطف بيضاء، ذات أزرار نحاسية كانت تلمع تحت أشعة الشمس وكأنها عيون صفراء!

أما البحر، فكان يمتد هادئا إلى الأفق المهتز وراء الضباب، بينما كانت الأمواج الصافية تتكسر في رفق على الشاطئ.وكان تألق البحر تحت ضوء الشمس يلوح كابتسامة مستهينة من ابتسامات «جوليفر» وهو يرقب جهود أهل مملكة الأقزام لتقييده، مطمئنا إلى أنه يستطيع أن يهدم ثمار هذه الجهود بحركة واحدة لو أنه شاء!..كان البحر يستلقي متألقا شاسعا، قويا ورحيما في آن واحد، يرسل إلى البر نسيما لطيفا لينعش أولئك المكدودين الذين كانوا يعملون دائبين لتقييد حرية أمواجه ..الأمواج التي كانت إذ ذاك تلعق الشاطئ المشوه، وكأنها تسرى عنه!.. كأنما كان البحر يرثى لأولئك العمال.. فقد تعلم — على مر القرون — أن أولئك الكادحين ليسوا هم الذين يطوون الجوانح على خطط السوء الموجهة إليه..فما هم سوى عبيد، عهد إليهم بالصراع مع عناصر الطبيعة.. وهي معركة تطمئن فيها عناصر الطبيعة إلى أنها قادرة على أن تصب نقمتها عليهم. ولكنهم لا يفعلون شيئا، سوى أنهم يشقون ويكدحون.. إنهم دائما يبنون، وما عرقهم ودمهم سوى «ألاسمنت» الذي تقوم عليه كل المنشئات على وجه البسيطة.. ومع ذلك فإنهم لا يجنون في مقابل ذلك شيئا.. حتى

وهم يسكبون قصارى قواهم في المحاولات الدائمة لإنشاء شئ ما.. وهي محاولات خلقت على الأرض معجزات، ولكنها لم تمنحهم أسقفا فوق رؤوسهم، أو غذاء كافيا لأجسادهم!

بل إن هؤلاء الرجال أنفسهم، عنصر من عناصر الطبيعة، وهذا هو السر في أن البحر يرقب في رحمة – وليس في نقمة! – عملهم غير المجدي!.. إن هذه المخلوقات الضئيلة التي تحفر سفح التل أشبه بقطرات الماء التي ينثرها البحر على التلال الصلدة المنيعة، في محاولته السرمدية لتوسيع حدوده!.. إن هذه المخلوقات هي أول من يهلك في الصراع.. وهي في مجموعها كالقطرات، تربطها بالبحر رابطة من القربى، إذ لا تختلف عنه في شئ، فهي مثله قوية، وهي مثله صائرة إلى دمار، إذا مستها أنفاس العاصفة!

لقد عرف البحر في الأزمان السحيقة رقيق «اكزيركسيس»، ذلك الحاكم المخبول الذي جلد البحر ثلاثمائة جلدة عقابا له على أن جرف الجسور التي أقامها عليه والتي كانت أشبه بلعب الأطفال!.. لقد ظل الرقيق سواء، وعلى شاكلة واحدة، في كل العصور.. ظل دائما أتباعا، وظلوا دائما يصنعون المعجزات ويقيمون المنشئات العظيمة.. أحيانا يقدسون أولئك الذين يسوقونهم المنشئات العظيمة.. أحيانا يقدسون أولئك الذين يسوقونهم إلى العمل، وكثيرا ما يلعنونهم، ونادرا ما يثورون على حكامهم!

.. وفي هدوء، كانت الأمواج تجري إلى الشاطئ الذي كان كل أولئك الناس ينشئون عنده حاجزا حجريا يصد حركتها المستمرة الدائبة.. وكانت تغني وهي تجري أغنية عذبة، عن الماضي.. عن أولئك الذين شهدتهم قرنا بعد قرن، على سواحل هذه البلاد!.. وكان بين العمال أفراد ذوو أجسام نحيلة سمراء، تعلو رؤوسهم عمائم أو طرابيش، ويرتدون سترات زرقاء قصيرة، وسراويل قصيرة منتفخة محكمة الالتفاف حول ركبهم. أولئك كانوا – كما عرفت فيما بعد – أتراكا من الأناضول. وكان حديثهم المنبعث في لهجة تنطلق من أعماق حلوقهم يختلط بذلك الكلام البطيء، الطويل الكلمات، الذي كان يصدر عن الروسيين من أبناء (فياتكا)، وبالعبارات السريعة، الخشنة، المنطلقة من أبناء الفولجا، وبلغة أهل أوكرانيا الرقيقة..

لقد كانت ثمة مجاعة في روسيا، وقد دفعت المجاعة الناس من كافة المناطق المنكوبة إلى هذا المكان.. ولقد أنشأوا فيما بينهم جماعات، ضمت كل فرد إلى مواطنيه. ولكن جوابي الآفاق – الذين يعتبرون الكون كله وطنا لهم – كانوا يظهرون من بينهم بسهولة، نظرا لما لهم من شكل مستقل، ولما لهم من ملبس وحديث يميزانهم عن أولئك الذين مازالت جذورهم راسخة في أراضي مواطنهم.. الذين لم ينسوا الأرض، ولم يتركوها إلا لفترة مؤقتة، تحت ضغط الجوع!.. فكنت ترى الجوابين في كل جماعة، يختلطون دون عناء مع أبناء فياتكا، ومع الأوكرانيين، ويشعرون أينما ذهبوا بأنهم في ديارهم. على أن معظمهم اجتمع حول آلة دك الأعمدة

الخرسانية، إذ كان العمل هناك أسهل من العمل مع الحافرين بالمعاول، أو الناقلين بالعربات!

وعندما تقدمت من العمال المحيطين بالآلة، كانوا يقفون ممسكين بالحبل في استرخاء، في انتظار أمر رئيسهم ليخلصوا البكرة – التي كان الحبل يجري حولها – من بعض خيوط القنب التي التفت حولها. وكان الرجل يقيم في برج خشبي صغير، ويصيح من وقت إلى آخر: «شدوا الحبل شدة!».. فيشدون الحبل في غير تحمس، ولا يلبث الرئيس أن يصيح: «كفوا!.. شدوا ثانية!.. امسكوا!.. حاولوا مرة أخرى!».. وما لبث منشد القوم – وهو شاب نامي اللحية، ذو وجه تناثرت فيه آثار الجدري، وقامة عسكرية – أن نصب قامته، وشد كتفيه، وولى وجهه جانبا ليتنحنح، ثم شرع يغني: «ودفعها السائق إلى الأرض..»، وما كان أكثر الرقباء تساهلا ليسمح بنشر السطور التي تلت ذلك، والتي بدا جليا أن المغني نفسه نظمها بوحي الساعة!.. وأثارت الأغنية ضجيجا عاليا، قابله المؤلف بأن راح يبرم شاربيه، كما يفعل الممثل الذي أعتاد تصفيق النظارة!

وصاح رئيس العمال محنقا: «أليس لديكم ما تفعلونه سوى أن تصهلوا كالبغال؟» ..فأجاب أحد العمال قائلا: «خفف عنك، وإلا انفجر أحد شرايينك يا متريتش!».. وبدا لي الصوت أليفا. وخيل إلي أنني رأيت من قبل تلك القامة الطويلة، العريضة المنكبين، وذاك الوجه البيضاوي، والعينين الزرقاوين.. أفمن المعقول أن يكون هذا كونوفالوف؟.. ولكن

كونوفالوف لم يكن يحمل تلك الندبة التي اعترضت جبين الرجل، من أعلى صدغه الأيسر حتى قصبة أنفه. ثم أن شعر كونوفالوف كان أغزر من شعر هذا الرجل، وأقل تجعدا، ولقد كانت لكونوفالوف لحية بديعة، في حين أن هذا الشاب كان حليقا، ذا شاربين طويلين، يمتد طرفاهما إلى أسفل، كشوارب أبناء أوكرانيا.. ومع كل هذه الفوارق، فقد كان في مظهره شئ جد مألوف لي. ومن ثم قررت أن أسأله عمن ألجأ إليه لا حصل على عمل. بيد أنني تريثت حتى يتم إصلاح الآلة..

وراح العمال يزمجرون وهم يشدون الحبل بقوة، ثم قفزوا فجأة في الهواء، وكأنهم كانوا يحلقون. وانبعث من الآلة صرير، ثم اهتزت..وامتدت أذرع سمراء يكسوها الشعر، إلى الحبال التي كانت فوق رؤوس الرجال.. وظلت المطرقة الحديدية الثقيلة تنزلق هابطة شيئا فشيئا من علوها الشاهق، ودقاتها على العامود لا تزداد ألا ضعفا!

كان أي متفرج خليقا بأن يظن أولئك الرجال من عبده الأوثان، وقد رفعوا أذرعهم وانحنوا – في نشوة وتقوى! – أمام معبودهم الصامت. وكان الهواء مفعما بالأبخرة الحارة المتصاعدة من وجوههم القذرة التي بللها العرق، والتي التصق الشعر المتناثر بجباهها الندية.. كان العرق يتفصد من كل أجسامهم: من أعناقهم السمراء، وأكتافهم المختلجة، وأبدانهم شبه العارية، والتي لا تسترها سوى أسمال من كل نوع.. وكانت تلك الأجسام تمتزج لتؤلف كتلة متماسكة من الأعصاب، أخذت تتلوى في الهواء الذي

اختلطت فيه الرطوبة بحرارة الجنوب، والذي تشبع برائحة العرق! وما لبث أن صاح شخص بصوت خشن أجش: «انتهى وقت العمل!»

وتراخت أيدي العمال، فتهاوت الحبال حول الآلة، ثم تهالك الرجال على الأرض، يجففون العرق عن وجوههم، ويملأون صدروهم بالهواء، ويريحون ظهورهم، ويتحسسون أكتافهم، ويشيعون في الهواء تمتمة خافتة بدت كزمجرة وحش غاضب!

وتقدمت إذ ذاك من الشخص الذي أشرت إليه، وقلت: «أيها الصديق!». فالتفت نحوى متباطئا، ثم ضاقت حدقتاه، وأشتد تركز نظراته.. وهتفت به: «كونوفالوف!».. فقال وهو يربت رأسي، وكأنه يريد أن يتسلل بيديه إلى حلقي: «مهلا!».. ثم أشرق وجهه فجأة بابتسامة فرحة، وصاح:

– مكسيم!.. من يتصور هذا؟.. أيها الزميل القديم! إذن فقد قطعت أنت الآخر قيودك، وانضممت إلينا معشر الشريدين، الجوابين؟.. هذا خير لك.متى أقدمت على ذلك؟ ومن أين قدمت؟.. لسوف نجوب الأرض كلها معا. إن تلك الحياة التي عشناها من قبل لم تكن بالحياة التي تلذ لنا، فليس فيها سوى الشقاء والكثير من المتاعب.. أنها أضمن طريق للعدم والموت!.. أنني منذ تركتك لم أستقر في مكان. وما أكثر الأماكن التي رأيتها!.. يا للهواء الذي استنشقته!.. ولكن لننظر إليك..كيف كبرت بهذا الشكل؟.. ما

كان بالسهل على أن أعرفك..فأنت في ثياب جندي، ووجه طالب.. ولكن، ما هو شعورك نحو هذا اللون من الحياة..حياة التنقل من مكان إلى آخر؟.. لا تظنني قد نسيت ستنكا، أو تاراس، أو بيلا.. إنني أذكرهم جميعا!

وراح يخز جنبي بأصابعه، ويضرب كتفي بكفه العريض. وإذ عجزت عن أن أجد كلمة تناسب المقام، ظللت واقفا ابتسم، محدقا في وجهه الرحيم، الذي أشرق بفرحة اللقاء.. وكنت أنا الآخر مبتهجا بلقائه كل الابتهاج، فقد ذكرني ذلك بالطريقة التي بدأت بها حياتي.. وكانت البداية خيرا مما أعقبها بلا مراء!

واستطعت في النهاية أن أسأل صديقي القديم عما أحدث به تلك الندبة في جبينه، وعن الشعر الخفيف المجعد، فقال: «آه..إليك ما حدث. لقد فكرت مع زميلين في أن نجتاز الحدود الرومانية، أملا في أن نتفقد الأحوال في رومانيا..فانطلقنا من (كاجولا)، وهي بقعة في (بيسارابيا)، على تلك الحدود. وفيما كنا نشق طريقنا بهدوء – في جنح الليل طبعا – إذا بصيحة تنبعث فجأة: «قف!».. ووجدنا أنفسنا وجها لوجه مع حراس الجمارك. وولينا الإدبار، وإذا بواحد منهم يصيبني في رأسي. ولم تكن إصابة خطرة في الواقع، ولكنها ألزمتني المستشفى شهرا..وتصور بعد ذلك، أن الجندي كان من أبناء بلدتي الأصلية!.. كان من أبناء (مروم)!.. فقد نقل إلى المستشفى بدوره بعد قليل، إذ طعنه أحد المهربين بخنجر في بطنه.

وعندما تحسنت صحة كل منا، بدأنا نتعارف، إذ سألني: «هل أنا الذي هشمت رأسك؟»، فقلت:«ما دمت تذكر الحادث، فلابد أنك صاحبه!».. قال: «أنت على حق، لابد أنني الذي فعلته!.. ولكن يجب أن لا تحقد على، فهذا واجبي.. لقد ظنناكم من المهربين. ولكن، أنظر.. إنني الآخر قد تعرضت لمثل ما تعرضت له أنت، فقد بقر المهربون بطني.. لا حيلة في ذلك، فليست الحياة لهوا! ».. وأصبحنا صديقين حميمين!.. يا له من ولد بديع..كان اسمه ياشكا مازين..أما هذا الشعر الخفيف المجعد، فقد نجم عن «التيفويد»، إذ أصبت بهذه الحمى. كانوا قد زجوا بي إلى السجين في (كيشينيف) لمحاولتي التسلل عبر الحدود، وهناك أصبت بالتيفويد. وكانت الإصابة شديدة الوطأة، أبقتني راقدا لمدة طويلة، حتى ظننت أنني لن أقوم قط، ولعلني ما كنت لا برأ لولا أن عنيت بي أحدى الممرضات عناية فائقة. وكان شفائي معجزة!.. فقد رعتني تلك الممرضة كما لو كنت طفلا، ولست أدري ما الذي دفعها إلى ذلك، فما كنت ذا قيمة لديها. وكنت أقول لها:«دعك من أمري يا ماريا بتروفنا، فأنني في خجل من فرط اهتمامك بي!»، فكانت تضحك مني.. كان لها قلب رحيم!..وكانت أحيانا تتلو على بعض الكتب الدينية عسى أن تنقذ روحي، فكنت أقول لها: «أليس بوسعك أن تجدي شيئا آخر — غير هذه — للقراءة؟».. ومن ثم أحضرت كتابا عن ملاح انجليزي غرقت سفينته عند جزيرة مقفرة، فأقام بتلك الجزيرة.. إنه كتاب يروق لك!.. لقد شغفت بهذا الكتاب، وتمنيت لو أنني عشت مع هذا الرجل في تلك الجزيرة.. يا لها

من حياة!.. الجزيرة، والبحر، والسماء، وأنت وحدك، بمفردك — ولديك كل ما تحتاج إليه — حر، طليق،..لقد عثر ذلك الرجل على زنجي عاش معه، أما أنا فقد أغرقت ذلك الزنجي في خيالي.. إذ ما حاجتي إليه؟.. كنت خليقا بأن أسعد بوحدتي!.. هل قدر لك يوما أن تقرأ هذا الكتاب؟»

– ولكن، قل لي: كيف خرجت من السجن؟

– لقد أطلقوا سرحي، بعد أن حاكموني وتبينوا براءتي.

ومن ثم أفرجوا عني.. كان الأمر جد بسيط!..ولكن، اسمع..إنني لن أواصل العمل اليوم.. يا له من جحيم!.. لقد تلاقى كفاي من التسلخات ما يكفيهما. ثم أنني أمتلك ثلاثة روبلات، وسأحصل عن عملي في الشطر الأول من هذا النهار على أربعين«كوبيا».. انه مبلغ لا بأس به، أليس كذلك؟..وعلى هذا، تعال واقض اليوم معي. إننا لا نعيش في مساكن العمال، وإنما نقيم على تل غير بعيد عن هنا. فقد عثرت على فجوة ملائمة للسكني، فتقاسمتها مع زميل آخر، ولكنه مريض، إذ أصيب بالحمى..انتظرني هنا ريثما أهرع إلى رئيس العمال.. لن أستغرق أكثر من دقيقة واحدة!» ونهض مسرعا، ثم سار مبتعدا، في الوقت الذي أمسك فيه العمال بالحبال، وبدأوا العمل من جديد. وظللت جالسا في مكاني أرقب الحركة الصاخبة المحيطة به، والبحر الهادئ الذي امتزجت زرقته بخضرة ما!

أخذ كونافالوف – بقامته المديدة – يمرق بين الرجال والعربات، وأكوام الأحجار وكتل الخشب.. وواصل سيره وهو يطوح بذراعيه، وقد بدا في قميص من القطن الأزرق كان جد قصير وضيق، وسروال من التيل الخشن، وحذاءين ضخمين. وكان يلتفت خلفه – بين الفينة والفينة – ليلوح لي بيديه. وتبينت أنه كان مختلفا عما عهدته.. كان عارم القوة والنشاط، مفعما بثقة مطمئنة في نفسه. وكان العمل يجرى على قدم وساق حوله، فكتل الأخشاب تشق، والأحجار الكبيرة تكسر، والعربات تئن تحت حمولاتها، وسحب التراب تنعقد في الهواء. وارتطم جسم ثقيل بالأرض، فزمجر العمال، وصاحوا، وانهالوا بالسباب، وراحوا يغنون في أصوات شجية..

كل ذلك وصديقي يشق بقامته البديعة طريقه عائدا في خطى ثابتة تتميز بطابع خاص وسط هذه الجلبة والحركة، وتحمل في طياتها جوابا يفسر ذلك اللغز: «كونوفالوف»

ولم تنقض ساعتان حتى كنت وإياه مستلقيين في«الفجوة الملائمة للسكنى».. وشدما كانت ملائمة!.. فلقد اقتلعت من التل صخرة، ذات يوم، فتركت ثغرة مربعة كبيرة، تتسع لكي يقيم فيها أربعة أشخاص براحة تامة. بيد أن الثغرة كانت جد منخفضة، وكما كانت ثمة صخرة تتدلى فوق المدخل، فلم تكن ثمة من وسيلة للدخول إلا بأن يزحف المرء على بطنه!.. وكان عمق الفجوة سبعة أقدام، بيد أنه لم تكن هناك حاجة للهبوط إلى

قاعها، بل أن الهبوط كان ينطوي على خطر، إذ كان من المحتمل أن تسقط الصخرة المتدلية فوق المدخل فتدفننا ونحن على قيد الحياة!.. وللتخلص من هذا المصير، عمدنا إلى دفع ساقينا وجسمينا إلى داخل الفجوة، التي كانت رطبة، وأبقينا رأسينا في خارجها، حتى إذا قدر للصخرة أن تسقط، حطمت جمجمتينا في الحال!

وكان المريض زميل كونوفالوف قد زحف إلى خارج الفجوة، حيث الشمس، ورقد على مسافة جد قريبة منا، إلى درجة أننا كنا نسمع اصطكاك أسنانه كلما اعترته قشعريرة. وكان شابا أوكرانيا طويلا، هزيلا، وفد من (بولتافا) كما أنبأني وهو يهذي. وكان يتقلب على الأرض محاولا أن يلف جسمه في دثار رمادي تكاد الثقوب تملأه.. وكان يسب صاخبا كلما ذهبت محاولته سدى، ولكنه لم يكف عن المحاولة.. ولا عن السباب!.. وكانت له عينان سوداوان تضيق حدقتاهما دائما، وكأنه لا ينفك يتفرس في شئ ما!

وأخذت الشمس تلفح أقفيتنا دون ما رحمة، فعمد كونوفالوف إلى سترتي العسكرية، ونشرها على عصا دقها في الأرض، فغدت مظلة شبيهة بالخيمة. وكان ضجيج العمل ينبعث عن بعد، ولكننا لم نكن نرى ما يجري عند الخليج. وكان ثمة جزء من الساحل يلوح إلى يميننا، وقد انتثرت عليه مساكن بيضاء صغيرة، تؤلف فيما بينها بلدة.. أما إلى يسارنا، وفي الناحية المقابلة لنا، فقد كان البحر يمتد ملقيا أطرافه بعيدا، حيث كانت تصافح

العين ألوان بديعة، جميلة، تنعش النفس بما فيها من جمال، وبالأطياف التي كانت تلك الألوان تتحلل أليها وهي تتلاشى في الأفق!.. وتسللت إلى أسارير كونوفالوف ابتسامة هانئة، وهو يرقبها، ثم قال لي: «عندما تغرب الشمس، سنوقد نارا ونعد شايا، كما أن لدينا بعض الخبز واللحم. هل تريد بطيخا؟»

ودفع بقدمه بطيخة كانت في إحدى الفجوات، ثم أخرج من جيبه سكينا، وقال وهو يقطع البطيخة: «كلما وجدت نفسي على مقربة من البحر، عجبت لقلة الناس الذين يقيمون هنا.. إن الإقامة هنا خير منها في أي مكان آخر، لأن البحر جد لطيف انه يوحي إليك بأطيب الأفكار. والآن، حدثني عما كنت تفعل خلال السنوات القلائل الأخيرة» وشرعت أروى له. وكان البحر – على البعد – قد اصطبغ بمزيج من اللونين القرمزي والذهبي، وخفت سحب وردية وبنفسجية باهتة، ساعية إلى الشمس.. فكأنما انبثقت من جوف البحر جبال ذات قمم مكسوة بالجليد، انعكست عليه أشعة الشمس الآفلة. وقال كونوفالوف في لهجة جازمة عندما فرغت من قصتي: «ما أسوأ حياتك في المدن يا مكسيم؟ ما الذي يجذبك إليها؟ إنها حياة راكدة، فلا هواء هناك، ولا شئ مما يحتاج إليه الإنسان!.. الكتب؟.. ألم يكفك ما قرأت من كتب حتى الآن؟.. أن الكتب مواد مخدرة تجلب النعاس، فإذا لم يكن منها بد، فاتبع لنفسك كتابا وضعه في حقيبتك، ثم انطلق.. «هل تحب أن تذهب معي إلى (طشقند)؟..

أو إلى (سمرقند)، أم هل لديك اقتراح عن مكان آخر؟..لسوف نمكث هناك فترة، ثم نتجه إلى (أمور).. فقد قررت أن اذهب إلى كل مكان، فان هذا هو كل ما أملك صنعه!.. وبهذا تستطيع دائما أن ترى أشياء جديدة. ولن تضييع وقتك في التفكير..كل ما عليك هو أن تسير قدما، والريح تمحو عن نفسك كل الشوائب وأنت حر، طليق، خالي القلب.. لا يتحكم فيك رئيس! إذا جعت،توقفت لتمارس عملا يدر عليك خمسين كوبيا في اليوم، أو لتسأل الناس لقمة من الخبز إذا لم تجد عملا فلن تعدم من يمنحك اللقمة.. لسوف تشهد شيئا من الدنيا على الأقل..قسطا من جمالها.. فهل ترافقني؟»

وانحدرت الشمس وراء الأفق.. وأخذت السحب تزداد تجهما، كما ران الظلام على صفحة البحر، واشتدت برودة الهواء.. ومن وقت لآخر، كانت تبزغ نجمة جديدة في عرض السماء. وتوقف ضجيج العمل عند الخليج، ولكنا كنا نسمع بين الفينة والأخرى أصواتا خافتة كأنها الزفرات.. وحملت الريح إلى آذاننا ويوية الأمواج الساجية، وهي تغسل الشاطئ. وما لبثت الظلمة أن اشتدت، وأصبح الشاب الأوكراني الذي كان واضح المعالم منذ دقائق لا يبدو إلا ككتلة مبهمة.. وأخيرا قال وهو يسعل:«أين النار؟».. فقال كونوفالوف: «سأشعلها!». وأحضر كومة من شظايا الخشب أوقد النار فيها، فسرعان ما بدأت ألسنة اللهب تلعق الخشب الأصفر. وتصاعد شريط من دخان راح يتلوى في هواء الليل الذي كان

يقبل باردا رطبا من البحر. وازداد الكون سكونا، وكأنما استلت منه الحياة، بعد إذ أخذت أصواتها تخمد في الظلام. ثم تبددت السحب، واشتد لمعان النجوم وضوحا وسط السماء الداكنة الزرقة. وعلى سطح البحر المخملي، بدت أضواء قوارب الصيد، وصور النجوم المنعكسة. وذكت النار أمامنا، وانتشرت كزهرة كبيرة أخذت تتفتح مسفرة عن أوراق حمراء تشوبها صفرة!.. وبعد أن وضع كونوفالوف أبريق الشاي فوق النار، جلس عاقدا يديه حول ركبتيه، وحملق في اللهب مخلدا إلى التفكير. وزحف الأوكراني مقتربا، وكأنه سحلية عملاقة!

وقال كونوفالوف أخيرا: «إن الناس ينشئون المدن ويشيدون البيوت، ويحتشدون في جماعات، ويفسدون الأرض، ويختنقون، ويقف بعضهم عقبات في طريق بعض.. أنها حياة كالجحيم..ولكنها الحياة الوحيدة التي كتب علينا أن نحياها!».. فزمجر الأوكراني وهز رأسه قائلا: «أذن، فهل ترى أن من حقك أن تعيش في معزل عن الناس، عيش السادة الإقطاعيين، إذا قدر لك أن تحصل على فراء وبيت دافئ في الشتاء؟».. وأغمض إحدى عينيه وهو يرمق كونوفالوف، ثم أرسل ضحكة خافتة. وقال كونوفالوف مفكرا: «أجل.. إن الشتاء فصل لعين، والمدن لازمة في الشتاء بلا مراء.. ومع ذلك فان هذا لا يبرر قيام مدن كبرى.لماذا نعيش في جماعات كبيرة، إذا كان من العسير على شخصين أو ثلاثة أن يعيشوا معا في وئام؟.. هذا هو الذي أعنيه.ولو أنك فكرت في الأمر، لرأيت أن

ليس ثمة مكان صالح لكي يعيش المرء فيه — أن شئت الحق — سواء أكان هذا المكان مدينة، أو سهلا، أو أي بقعة أخرى!.. على أن من المستحسن أن لا تفكر في أمور كهذه.. فأنت لا تملك إصلاحها، وكل ما تجنيه منها هو أن تفسد على نفسك مرحها!»

وكنت قد حسبت أن حياة التجوال التي يعيشها كونوفالوف قد غيرت من أفكاره، وأن هواء الحرية الذي ظل يستنشقه في السنوات الأخيرة قد مكنه من أن ينتزع من قلبه قيود التعاسة التي كانت تحيط به.. ولكنني تبينت من اللهجة التي قال بها تلك العبارات انه كان لا يزال نفس الرجل الذي عرفته.. الرجل الذي يبحث عن «شيء يتشبث به»!..

فإن سوء الحظ قضى على هذا الجسد القوي أن يولد وبين جوانحه قلب جد رقيق.. ومن ثم فقد ظل هذا الكيان يتعرض للدمار أمام غزوات الحيرة، وسموم التخبط في التفكير في شئون الحياة!.. إن في روسيا كثيرين من هؤلاء المتأملين المفكرين، وهم دائما أكثر شقاء من سواهم، لأن جهل عقولهم يضاعف من وطأة أفكارهم!.. ورمقت صديقي في إشفاق، فهتف في أسى وكأنه يعزز ما انتهى إليه تفكيري في أمره:

- إنني كثيرا ما أفكر في حياتي معك يا مكسيم، وفي.. وفي كل ما جرى إذ ذاك. كم من أماكن حللت بها منذ ذلك الحين وكم من أشياء رأيتها!.. ومع ذلك، فأنني لم أجد على الأرض مكانا واحدا

أنسجم معه، وأصلح للإقامة فيه.. أنني لا أجد مكانا لنفسي، وهذا كل ما في الأمر!

فقال الأوكراني وهو يرفع الإبريق عن النار إذ غلي ماؤه: «هذه نتيجة أنك ولدت بعنق ليس بين الأغلال ما يعادله مقاسا!».. فقال كونوفالوف: «هل لكما أن تخبراني: لماذا لا أستطيع الاستقرار في مكان ما؟.. لماذا يعيش معظم الناس حياة عادية، ويمارسون أعمالا ثابتة، ويتخذون لأنفسهم زوجات وينجبون أطفالا، ويحظون بكل النعم التي من هذا القبيل، ويطمحون دائما نحو القيام بعمل ما، في حين إني لا أستطيع ذلك.. ولا أدري تبرير العجزي؟.. لماذا لا أستطيع؟» وهتف الأوكراني مأخوذا: «لماذا تعمد دائما إلى العويل؟.. كأنما العويل سيخفف من وطأة الواقع!».. فقال كونوفالوف واجما: «إنك على حق!».. فقال الأوكراني المستسلم للقضاء والقدر، وهو يناضل الحمى: «انني أدخر الكلمات، وإن كان لدى دائما من الكلام ما يكفي لإقناعك». ثم راح يسعل، ويتململ في مكانه، ويبصق في النار بعنف. وبدأ كل شئ حولنا يتوارى عن أبصارنا بين طيات حجب الظلام.. حتى

السماء كانت مظلمة هي الأخرى، إذ لم يكن القمر قد بزغ بعد. وكنا نحس بالبحر، دون أن نراه، لفرط الظلام الذي أخذ يشتد حتى بدأ كأن ضبابا أسود قد هبط على الأرض!.. وخمدت النار. وما عتم الأوكراني أن قال: «لندخل!». فزحفنا إلى الفجوة، وتركنا رؤوسنا خارجها ولم ننبس

ببنت شفة. ورقد كونوفالوف وهو لا يحير حراكا، وكأنه كان غائبا عن الوعي. أما الأوكراني فقد راح يتقلب على جنبيه، وأسنانه تصطك لفرط الرعشة. وظلت فترة طويلة وأنا أرقب الجمر المحتضر.. كانت الجمرات في البداية كبيرة، متقدة، ثم راحت تتضاءل، وتنكمش تحت طبقات من الرماد الذي لم يلبث أن أخمدها.. ولم يبق من النار سوى لفحات دافئة. وقلت لنفسي: «كل منا على هذه الشاكلة، ولكن ما أحلى التألق، ولو للحظة واحدة!»

بعد ثلاثة أيام ودعت كونوفالوف، لأرحل إلى (كوبان).. وعرضت عليه أن يصحبني، ولكنه رفض وافترقنا، وكل منا موقن من أنه لن يلبث أن يلتقي بصاحبه..

ولكنا لم نلتق قط!

موكب العار

كان الحشد يتحرك،مارا بالأكواخ الطينية البيضاء، في شارع القرية، وأفراده يصيحون بأصوات عالية. وكان الموكب يتحرك في بطء، وكأنه موجة عارمة، وقد سار في مقدمته حصان أجرب، منكس الرأس..كلما رفع إحدى ساقيه الأماميتين، مال رأسه إلى الأمام وكأنه يوشك أن ينكفئ على وجهه فيدفن أنفه في رغام الطريق..وإذا حرك إحدى ساقيه الخلفيتين، مال وترنح وكأنه يوشك أن يتهالك على الأرض!

والي عارضة العربة، ربطت – من رسغيها – شابة لم تكد تتجاوز العقد الثاني من عمرها، ضئيلة الجسم، عارية تماما!.. وكانت تسير بجنب – أي وجهها في اتجاه، وخطواتها في اتجاه آخر متعامد عليه – وركبتاها ترتجفان وتنذران بأن تتخليا عن حملها. وكان رأسها المكسو بشعر أسود أشعث، مرفوعا إلى أعلى، وعيناها المفتوحتان على سعتهما تحملقان في الفضاء بنظرة خاوية، لا تشبه نظرات البشر!.. أما جسمها فكان موشي بعلامات تمثلت في خطوط ونقاط سوداء وزرقاء.. بينما كان ثديها الأيسر المكور – الذي ينم عن أن صاحبته عذراء – مصابا بجرح غائر، راح الدم يتدفق منه!

ورسم الدم خطا أسود كان يمر فوق بطنها، وينحدر على فخذها الأيسر إلى الركبة. وكان التراب متجمدا حول أسفل ساقيها الرفيعتين

المتناسقتين. وبدا كأنما أنتزع من جسد المرأة شريط رفيع، طويل، من الجلد.. ولاشك في أن بطنها كان قد ضرب بهراوة، أو وطئ بحذاء، إذ كان متورما بشكل بشع، ومحتقن اللون!

وكانت المرأة لا تكاد تقوى على أن تجر قدما وراء قدم، خلال التراب الأسمر.. فقد كان جسدها بأسره ملتويا. ولم يكن يسع المرء سوى أن يعجب من أن ساقيها – اللتين كانتا حافلتين بالكدمات كجسدها – كانتا تقويان على حملها، ومن أنها كانت تتمالك نفسها من أن تقع وتجر على الأرض!

وكان يقف في العربة فلاح يرتدي قميصا روسيا أبيض، وقبعة من فراء (الاستراخان) الأسود، أفلتت من حافتها خصلة من شعر أحمر لامع، تدلت على جبينه. وأمسك بعنان الجواد بإحدى يديه، بينما أمسك باليد الأخرى سوطا كان يلهب به الجواد أولا، ثم المرأة الصغيرة – التي تلقت من الضرب حتى ذاك الوقت ما يفوق الوصف – في توال متناسق رتيب!.. وكانت عينا الرجل محمرتين – كأنهما كأسان من دم – وقد راحتا تومضان بنصر كان يعتقد انه من حقه!.. وكان كما قميصه مرفوعين، يكشفان عن ساعدين مفتولي العضلات، مكسوين بشعر أحمر.. أما فمه، فكان مفتوحا، يكشف عن صفين من الأسنان البيضاء الحادة..

وكان يصيح من وقت إلى آخر، بصوت أجش:«إليك هذه الضربة أيتها الفاجرة!.. ها.. ها.. وهذه أيضا». وكأن الحشد يسير وراء المرأة

والعربة، وقد أخذ أفراده يصرخون، ويضحكون، ويصيحون ساخرين، ويصفرون، ويستحثون الرجل، ويهزأون من المرأة!.. وكان السباب المقذع يتعالى من هنا ومن هناك.. وقد يجري فرد من الجمع – بين وقت وآخر – ويلقى في وجه المرأة بكلمات بذيئة فاحشة، وإذ ذاك كان الجمع ينفجر ضاحكا، فيطغى ضجيج الضحك على فرقعة السوط وهو يمرق في الهواء. وكانت وجوه النساء المندسات في الجمع، مسارح لشتى الانفعالات، بينما كانت عيونهن تومض سرورا!.. أما الرجال، فكانوا سادرين في توجيه فاحش التعليقات إلى الفلاح الواقف في العربة.. وكان يلتفت إليهم، ويقهقه فاغرا فاه على سعته، ثم يهوي بالسوط فجأة

على جسد المرأة.. وكان السوط الطويل، الرفيع، يلتف حول كتفيها، وليذعها تحت أبطها.. وإذ ذاك كان الفلاح يجذبه بشدة مفاجئة، فتصرخ المرأة، ثم تقع على ظهرها.. ويقفز أفراد من الجمع نحوها، فيحجبون جسدها عن الأبصار وهم ينحنون عليها ويقف الجواد. ولكنه لا يلبث أن يعاود سيره المتخطر بعد لحظة، والمرأة الرازحة تحت عارها تسير وراءه.. وكان الحصان لا ينفك يهز رأسه الاجرب، وكأنه يقول: «ما أبشعه من مصير أن تكون جوادا يسخره الناس في مهامهم المرزية!» وكانت السماء – سماء الجنوب – خالية من أية شائبة، لا يرى خلالها أي أثر لسحاب، والشمس تصب شواظ لهيبها على الأرض.

إن هذا الذي كتبته ليس صورة لقصاص عادل، من وحي الخيال.. وهذه الصورة – لسوء الحظ – ليست من ابتداعي، وإنما هي صورة واقعية لما يسمونه «إعلان الفضيحة»،وهي وسيلة يعاقب بها الأزواج الزوجات الخائنات.. أنها صورة نقلت عن الحياة.. أنها من عاداتنا، وقد شهدتها بعيني في ١٥ يوليو سنة ١٨٩١، في قرية (كانديبوفكا)، بمنطقة (خيرسون جوبرنيا)، بإقليم (نيكولايفسكي) ولقد سمعت أن النساء اللاتي يقدمن على خيانة أزواجهن في إقليم الفولجا – الذي جئت منه – تطلي أجسادهن بالقار، ويلصق بها ريش!.. ولقد عرفت حالات كان الأزواج وآباء الأزواج يعمدون فيها إلى التجديد، فيطلون أجساد الزوجات الخائنات بالدبس – العسل الأسود السميك – في وقت الصيف، ويربطونهن إلى الأشجار، لكي تلدغهن الحشرات وتقرصهن!.. كذلك سمعت في بعض أحيان عن نساء كن يوثقن، ويلقى بهن إلى التلال الموبوءة بالنمل!

ولقد أثبت لي هذا الذي رأيته بعيني، أن مثل هذه الأمور محتملة الوقوع حقيقة بين الجهلة، عديمي القلوب، الذين أحالتهم البغضاء المسعورة – المتفشية في حياتهم – إلى وحوش ضارية، يستبد بها الجشع والحسد!

خطيئة الطاهية!

أخذ قطار الركاب ينهب الأرض نهبا وكأنه حية رقطاء هائلة الحجم، تنفث سحبا كثيفة من الدخان الاشهب. وسرعان ما ابتلعته السهول الشاسعة، وغاص في بحر يموج بسيقان الحنطة الصفراء. ثم أخذ الدخان يتحلل ويتلاشى في الهواء الساخن، كما تضاءل هديره الصاخب المجلجل، بعد أن ظل لحظات يعكر سكون السهل الفسيح المنبسط الذي قامت في وسطه محطة صغيرة للسكك الحديدية، كانت في عزلتها محفوفة بالكآبة والأسى!

وعاد السكون الثقيل الوطأة يجثم على المحطة، عندما تبدد ضجيج القطار.. ذلك الضجيج الذي كان رغم ضوضائه المزعجة، مفعما بالحياة والحركة!

وكانت السهول في صفرة الذهب، والسماء صافية الزرقة، وقد انبسطت كل منهما إلى وراء مرامي البصر. وفي وسط هذا الفراغ الشاسع قامت بنايات المحطة القاتمة اللون، كأنها خطوط رسمتها عفوا فرشاة رسام عقيم الخيال، فأتلفت لوحة مؤثرة تبعث في النفس الأسى..

وكانت القطارات تفد من السهل مرتين في كل يوم- في الثانية عشرة ظهرا وفي الرابعة- فتقف لدى المحطة دقيقتين كاملتين. وكانت هذه الدقائق الأربع، تمثل التحول الرئيسي- بل الأوحد- في حياة مستخدمي المحطة،

فهي وحدها التي تجلب لهم أية مشاعر وأفكار جديدة.. ذلك لأن كل قطار كان يضم كافة أنواع الناس في جميع أصناف الثياب. ولم يكونوا يظهرون في نوافذ العربات لأكثر من برهة وجيزة، وكأنهم لوحة متحركة لوجوه أثقلها التعب، والملل، وعدم الاكتراث.. ثم ينبعث رنين ناقوس، وصفير، ولا تلبث الصورة أن تنزلق في السهل، مبتعدة نحو المدينة، حيث تموج الحياة وتصطخب!

وكان موظفو المحطة يتطلعون إلى تلك الوجوه في فضول، فإذا ما غاب القطار. أخذ كل منهم يحدث الآخر عما خلفه المنظر في نفسه من آثار.. والسهل الساكن يمتد حولهم من جميع النواحي، والسماء تعلو رؤوسهم بقبتها الزرقاء التي لا قرار لها.. وكان الحسد يدب في قلوبهم نحو أولئك الناس الذين كانوا ينطلقون في كل يوم نحو غايات مجهولة، ومخلفين هؤلاء الموظفين كالسجناء في هذه الفلاة الممتدة وراء هامش الحياة، ان صح هذا التعبير!.. ومن ثم كانوا يقفون على رصيف المحطة يرقبون الشريط الأسود الذي يمثل القطار الراحل وهو يختفي في أمواج الحنطة الذهبية.. وكانوا يخلدون إلى الصمت وهم مستغرقون في المشاعر التي تثيرها في أنفسهم هذه اللمحة الخاطفة للحياة!

وكان هؤلاء الواقفون يشملون جميع الموظفين تقريبا: ناظر المحطة– وهو رجل ربعة القوام، بشوش الوجه، اصفر الشعر، غير مقصوص السوالف كأبناء القوقاز– ومساعدة الشاب، برأسه ذي الشعر الأحمر،

وسترته المصنوعة من جلد الماعز.. و"لوكا" خفير المحطة، ذو الجسم الضئيل، والحركة الخفيفة، والملامح الماكرة.. وعامل للإشارة (محولجي) – يدعى "جوموزوف"– هادئ الطباع، ممتلئ الجسم، كث اللحية!.. وعلى مقعد بجوار باب المحطة، كانت تجلس زوجة الناظر، وهي امرأة قصيرة، بدينة، تعاني كثيرا من وطأة القيظ.. بينما ينام على ركبتيها طفل له وجه في استدارة وجه أمه واحمراره!

* * *

ولا يلبث القطار أن يهبط منطقة منحدرة من السهل ثم يختفي وكأنما ابتلعته الأرض.. وإذ ذاك، يلتفت الناظر إلى زوجته، فيقول: "هل الشاي معد يا سونيا؟"

فتقول في صوت رقيق، واهن: "طبعا!"

– إذن، فرتب كل شيء يا لوكا!.. واكنس الرصيف وما بين القضبان.. أنظر إلى كل هذه الفضلات التي خلفوها!

– إنني أراها يا ماتفي ايجوروفيتش.

– حسنا، هل نتناول الشاي يا نيكولاي بتروفيتش؟

فيجيب المساعد قائلا: "كالمعتاد!"

كان هذا هو الحديث الذي يدور بعد قطار الساعة الرابعة.

أما إذا كان قطار الظهر هو الذي مر، فإن ما تفي ايجوروفيتش كان يقول لزوجته: "هل الغداء معد يا سونيا؟". ثم يلقى بتعليماته إلى لوكا، ويقول لمساعده الذي كان يقيم معه ومع زوجته: "حسنا، هل نتناول الغداء؟". فيجيب مساعده في تحبيذ: "أجل، كالمعتاد!". وإذ ذاك، يتركون الرصيف، ويذهبون إلى حجرة تضم كثيرا جدا من النباتات، وقليلا جدا من الأثاث.. حجرة تعبق برائحة الطهو وبخار الغسيل. وحول المائدة– التي تمد فيها– يدور الحديث دائما حول ما لاحظوه في القطار. فيقول ما تفي ايجوروفيتش لمساعدة: "هل لاحظت تلك السمراء التي كانت ترتدي ثوبا أصفر، في مركبة الدرجة الثانية يا نيكولاي بتروفيتش؟.. إنها تحفة مغرية، أن أردت رأيي!"

فيقول المساعد: "لا بأس بها. ولكن ثوبها لم يكن ملائما!"

وكانت ملاحظات المساعد مقتضبة على الدوام، وقد كان يفخر بأنه متعلم وذو تجربة. إذ أتم الدراسة في معهد التربية البدنية. وكان يحتفظ بمفكرة ذات غلاف جلدي أسود، يدون فيها ما كان يصادفه من أقوال المبرزين من الرجال، في الكتب والصحف التي كانت تقع بين يديه. وكان الناظر يأخذ برأيه في جميع الأمور الخارجة عن نطاق العمل، ويصغي باهتمام إلى كل ما كان يقوله، ويعجب بوجه خاص بجواهر الحكمة التي كانت توجد في مفكرة نيكولاي بتروفيتش، فكان يطيل التفكير فيها باستيعاب وسذاجة!

وتثير ملاحظة المساعد عن ذوق السمراء في ملبسها، بعض القلق في نفس الناظر، فيستريب في حكمه، ويتساءل: "ولماذا؟.. ألا ينبغي للسمراوات أن يرتدين الثياب الصفراء؟". فيقول نيكولاي، وهو ينقل بعض المربى من الطبق الزجاجي الكبير إلى طبقه، في عناية متكلفة: "لم أكن أفكر في اللون، وأنما كنت أرمي إلى طراز الثوب". وغذ ذاك، يوافق الناظر على قوله، مردفا:"الطراز؟.. هذه مسألة أخرى!"

وتنضم زوجة الناظر إلى الحديث، لأن الموضوع قريب إلى قلبها، مستساغ لذهنها.. ولما لم تكن عقول هؤلاء القوم تتعرض لكثير من الصقل والتثقيف، فإن حديثهم كان يدور بفتور، ولا يكاد يحرك مشاعرهم!

وخلال النوافذ، كان السهل يتراءى، وقد سيطرت عليه السكينة، والسماء وقد تجلت رائعة في صفائها.. ونادرا ما كانت تنقضي ساعة دون أن يمر بالمحطة قطار من قطارات البضاعة. وكان عمال هذه القطارات جميعا معارف قدماء لموظفي المحطة. وقد اعتاد حراس القطارات أن يركنوا إلى الخمول، وقد اعتاد حراس القطارات أن يركنوا إلى الخمول، زقد ذهبت بنشاطهم تلك الرحلات التي لا نهاية لها، في تلك السهول.. على أن الخمول لم يكن يحول بينهم وبين التندر بتكرار رواية ما صادفوا من حوادث في البقاع التي كانوا يمرون بها.. كمقتل شخص ما، في مكان معين في طريقهم.. أو كانوا يتحدثون عن العمل، فهذا زميل قد جوزي بخصم من مرتبه، وذاك زميل نقل من منصبه. وما كانوا يطيلون النقاش في هذه

الموضوعات، بل كانوا يخوضونها سريعا، كالنهم إذا ما صادف صنفا شهيا نادرا من الطعام!

ولا تلبث الشمس أن تتهادى نحو حافة السهول، ولونها يزداد تحولا كلما اقتربت من الأرض حتى يصبح قرمزيا، ويضفى على كل شيء وهجا أحمر قانيا.. ويثير هذا في النفوس حنينا مبهما، هو– في الواقع– شوق إلى الحياة الصاخبة في البقاع القائمة وراء هذه الفيافي.. وتمس الشمس– في النهاية– حافة الافق، ثم تهوى متثاقلة في هذا الأفق أو خلفه!.. وتظل نغمات الغروب تؤلف لحنا عذبا في السماء، لفترة طويلة بعد ذلك. ولكنها تخففت شيئا فشيئا، إذ يرين على الكون غسق دافئ، صامت.. وتبزغ النجوم، متذبذبة، مرتعشة، وكأنها في جزع من وحشة المنظر!

ويبدو السهل وكأنه ينكمش في طيات الغسق، بينما تطبق ظلال الليل رويدا– وفي صمت– على المحطة من كل جانب. ثم يأتي الليل ذاته، مظلما كئيبا، فتضاء المحطة بأنوار أكثرها ارتفاعا وأشدها تألقا، هو ضوء الإشارة (السيمافور) الأخضر الذي يشع وسط الظلام والسكون!.. ومن وقت إلى آخر، يرن ناقوس منذرا باقتراب قطار، فيسرى الرنين في المراعي، ويتلاشى في جوفها. ولا يلبث أن ينبعث من الفضاء المعتم ضوء أحمر، يقبل مسرعا. ويقطع سكون السهل هدير قطار يشق طريقة نحو المحطة المنعزلة الملتفة في الظلام!

* * *

وكانت حياة الطبقة الدنيا من هذا المجتمع الصغير تختلف عن حياة "أرستقراطية" كان "لوكا" خفير المحطة في نضال دائم مع رغبته في الفرار من هذا المكان، إلى زوجته وشقيقه اللذين كانا يقيمان في قرية تبعد عن المحطة بحوالي سبعة كيلو مترات. وكان غالبا ما يسأل "جوموزوف" عامل الإشارة الرصين، القليل الكلام، أن يقوم بالحراسة بدلا منه، كي يذهب فيرى "أهل بيته"!.. وكانت عبارة "أهل البيت" هذه، تجعل جوموزوف يتنهد دائما، ثم يقول للوكا: "حسنا.. اذهب، فإن "أهل البيت" بحاجة إلى من يرعاهم، ولا شك!"

غير أن أفاناسي ياجودكا "المخلوجي" الآخر- وهو جندي سابق، ذو وجه مستدير تطغي عليه لحية شيباء- كان على النقيض من زميله، فما كان يصدق كلام "لوكا"، وانما كان يقول في سخرية: "أهل البيت؟!.. لو قلت "زوجة" لكان هذا أقرب إلى التصديق. ولكن، أية زوجة هي؟.. أهي أرملة؟.. أو تراها زوجة جندي؟". فكان لوكا يجيبه في ازدراء: "يا لك من برجادير طائر!"

وكان يطلق على ياجودكا "البريجادير الطائر" لأن الجندي السابق كان شغوفا بالطيور، وكان منزلة الصغير مليئا- في الداخل والخارج- بأقفاص الطيور، التي كانت أصواتها وشقشقتها تسمع من جوف البيت وحوله، طيلة اليوم. فكان السمان الذي يأسره الجندي، لا ينفك عن ارسال شقشقة رتيبة مسترسلة طوال اليوم، أما الزرازر فكانت تدمدم بما يشبه

الكلام الطويل العبارات.. بينما كانت العصافير الصغيرة– من جميع الألوان– تصفر وتشقشق وتغرد بلا انقطاع، فتبعث في حياة الجندي بهجة. وكان يخصها بكل أوقات فراغه.. كان يأنس لها ويؤثرها بعنايته، في حين أنه لم يكن يحتفل– أتفه احتفال– برفاقه في المحطة. بل كان يدعو لوكا ثعبانا، وجوموزوف ثعلبا، وكان يرميهما– في وجهيهما– بأنهما يجريان وراء النساء، وانهما لهذا يستحقان– في رأيه– الضرب!

ولم يكن لوكا ليكترث لقوله، ولكنه كان لا يلبث– إذا ما تمادى الجندي– أن يشرع في الحملة عليه بعنف وغل، قائلا: "يا لك من فأر قذر!.. ما أشبهك بلفتة ممضوغة!.. أي نفع يرتجى منك يا قارع الطبل لعنزة الكولونيل؟ أن كل ما فعلته في حياتك هو أنك كنت تحشو المدافع بالضفادع، وكنت تحرس قرنبيط الفرقة!.. من أنت حتى تطلق الالقاب على غيرك؟.. ألا عد إلى سمانك وزرازيرك أيها البريجادير الطائر!"..

وكان ياجودكا ينصت إلى هذه الشتائم في هدوء، ثم يذهب إلى ناظر المحطة فيشكو إليه، وإذ ذاك، كان الناظر يصيح فيه بأن لديه من الأمور ما هو أهم من ذلك، ثم يطرده. فكان ياجودكا ينطلق باحثا عن لوكا، حتى إذا وجده، انهال عليه بلاذع القول وهو هادئ، متمالك الأعصاب، مستخدما أقذع ما في اللغة من بذاءات، حتى يضطر لوكا إلى الفرار وهو يسد أذنيه أشفاقا مما يسمع!

أما إذا سخر الجندي من جوموزوف، متهما اياه بالطيش والتفاهة، فإن الأخير كان يقنع بالتنهد، ويبذل محاولات مضطربة للدفاع عن نفسه، قائلا: "وما الذي يمكن عمله؟.. يبدو أن لا حيلة في الأمر.. ربما كنت ذا عيوب حقا، ولكن المثل يقول: لا تحكموا على الغير، حتى لا تتعرضوا لأن يحكم عليكم الغير!.. ورد الجندي يوما على ذلك قائلا، وهو يطلق ضحكة قصيرة: "انك لا تفتأ تكرر هذا العلاج لكل الشرور.. "لا تحكموا".. "لا تحكموا".. وكيف يكون ذلك؟.. إذا لم يحكم الناس على زملائهم، فلن يجدوا موضوعا يتحدثون فيه!"

* * *

وكانت في المحطة امرأة أخرى غير زوجة الناظر. تلك هي "أرينا" الطاهية.. وكانت تناهز الأربعين من العمر، بشعة إلى أقصى درجات الدمامة، بدينة في غير انتظام، ذات نهدين طويلين متهدلين.. وكانت دائما قذرة، سيئة الملبس، قميئة المظهر، تترنح إذا سارت، ويشع الفزع باستمرار من عينيها الشبيهتين بشقين يلمعان في وجه امتلأ بالبثور.. وكان مظهر الجبن وذلة العبودية يتجليان في قسماتها غير المتناسقة، فكانت شفتاه الغليظتان مزمومتين على الدوام، وكأنها كانت تهم بأن تطلب العفو من كل امرئ.. بل كأنها كانت تخشى أن تنفجر باكية وتود أن تخر راكعة أمام جميع الناس!.

ولقد أقام جوموزوف ثمانية أشهر في المحطة دون أن يعيرها أي انتباه يذكر، اللهم ألا أن يقول لها "أهلا!" إذا مر بها، فترد التحية. وقد يتبادلان بضع كلمات عابرة، ثم يتابع كل منهما سيره في طريقه. على أن جوموزوف ما لبث أن ذهب يوما إلى مطبخ ناظر المحطة، فسأل أرينا أن تحيك له بعض الاقمصية.

وقبلت الطاهية، فلما أتمت صنع الأقمصة، حملتها إليه بنفسها، فقال: "شكرا.. إنها ثلاثة أقمصة، يستحق كل منها عشرة كوبيكات، فكأن لك عندي ثلاثين كوبيكا.. أليس كذلك؟".. فقالت أرينا: "أظنها كذلك".. فاستغرق جوموزوف التفكير هنيهة، ثم قال للمرأة التي كان بصرها عالقا بلحيته: "من أية قرية أنت؟".. فأجابت: "من ريازانسكايا"

– انها بعيدة عن هنا كل البعد، فكيف وفدت على هذا المكان؟

– لست أدرى، فأنا وحيدة، وليس لي في الدنيا أحد!

فتنهد جوموزوف قائلا: "هذا وحده سبب كاف لأن يذهب المرء إلى أبعد من هذا المكان"

وأخلد الاثنان إلى الصمت ثانية، ثم عاد جوموزوف يقول بعد قليل: "إنني مثلك.. فأنا من (نيجني نوفجورود).. من قرية (سيرجاش اويزرد).. وأنا وحيد أيضا، ليس لي من أهل على الاطلاق. على أنني كنت يوما ذا بيت وزوجة وطفلين، ثم توفيت زوجتي ضحية الكوليرا، ولحق بها الطفلان بهذا المرض أو ذاك. أما أنا، فقد أضنيت نفسي حزنا. وحاولت فيما بعد

أن أبدأ الحياة من جديد، ولكني لم أفز بطائل، إذ كانت أعمالي قد كسدت ولم يعد من سبيل إلى انعاشها. ومن ثم رحلت.. إلى أقصى ما استطعت. وها أنذا أعيش فيما أنا فيه منذ عامين!"

فقالت أرينا في لطف: "من أسوأ الأمور أن لا تجد مكانا تستطيع أن تقول أنه دارك!"

– اإنه أسوأ الامور فعلا.. أ أنت أرملة؟

– لا، بل عذراء

ولم يحفل بأن يخفي تكذيبه لقوله، بل صاح: "دعك من هذا القول!".

ولكن أرينا قالت باصرار: "إنما أقول صدقا"

– إذن، فلماذا لم تتزوجي حتى الآن؟

– ومن الذي يرضى بي، ولست أملك شيئا؟.. إن الرجل يطمع دائما في شيء.. ثم إن وجهي جد دميم!

فتفرس جوموزوف في وجهها بفضول، وهو يتخلل لحيته بأصابعه، وقال: "حقا!". ثم سألها عن أجرها، فقالت: "روبلان ونصف روبل"

– آه، صحيح.. إنني مدين لك بثلاثين كوبيكا، أليس كذلك؟.. اسمعي، تعالى لتتقاضيها الليلة.. حوالي الساعة العاشرة. هل تأتين؟ سأدفع لك المبلغ، وسنتناول معا كوبا من الشاي، لدفع السأم عن نفسينا!.. إننا وحيدان في الحياة.. فتعالى!

فقالت في بساطة: "لسوف أحضر".. وانصرفت.

* * *

وذهبت إليه في الساعة العاشرة تماما، فلم تغادره ألا في الفجر!

ولم يدعها إلى العودة مرة أخرى، ولا هو أعطاها الكوبيكات الثلاثين. ولكنها عادت إليه من تلقاء نفسها.. عادت طائعة، منصاعة، فوقفت أمامه صامتة، ذليلة.. وراح يحملق فيها من مرقده على الحشية، ثم قال بعد برهة وهو يوسع لها مكانا: "اجلسي!". حتى إذا قال جلست، قال لها: "اسمعي.. احفظي هذا في طي الكتمان، ولا تدعي أي مخلوق يحدس شيئا عنه. أتسمعين؟.. لسوف أتعرض للمتاعب إذا أفشيت الأمر، وأنا أعد شابا.. ولا أنت كذلك!.. أفهمت؟".. فأطرقت برأسها علامة التأكيد!

وعندما ودعها، أسلمها بعض ثيابه لترتقها له. وعاد يوصيها قائلا: "حذار من أن يحدس أحد شيئا!" وهكذا أخذا يعيشان معا، وهما يخفيان علاقتهما من الآخر في حرص. فكانت أرينا تتسلل إلى غرفته في الليل، وهي تكاد تحبو– إمعانا في التخفي– فيستقبلها بترفع وكأنه من كبار الملاك أو السادة.. حتى إنه لم يكن يتورع عن أن يقول لها في بعض الأحيان: "أي وجه هذا الذي أوتيته". فلا تجيب بغير ابتسامة خجلى، تحمل معنى الاعتذار. حتى إذا تأهب للانصراف، حملت معها بعض ثيابه لتصلحها!

ولم يكونا يتقابلان كثيرا. ولكنه كان إذا لقيها أحيانا حول المحطة، همس في أذنها:"تعالي الليلة!". فتذهب إليه طائعة، وعلى وجهها المشوه بالبثور، ما يوحى بأنها كانت تؤدي واجبا جليلا، تدرك قيمته كل الإدراك. على أنها في عودتها إلى الدار، كانت تبدو في منظر القلقة، الشاعرة بالذنب!.. وكانت تقبع أحيانا في ركن ما، أو وراء أحد الأبواب، وتسرح بصرها في المراعي، حيث يسيطر الليل، فيملأ سكونه الرهيب فؤادها رعبا!

وفي ذات يوم، جلس موظفو المحطة- عقب مرور قطار العصر- يتناولون الشاي، في ظل بعض أشجار الحور القائمة وراء نوافذ دار ناظر المحطة. وكانوا كثيرا ما يتناولون الشاي في ذلك المكان في الأيام الحارة، إذ يجدون في ذلك خروجا على رتابة حياتهم..

وأخذوا في ذلك اليوم بالذات، يشربون الشاي وهم صامتون، إذ أفرغوا كل ما كان يمكن أن يقال عن آخر قطار مر بهم. وما لبث أن قدم ناظر المحطة كوبه الفارغة، إلى زوجته- بإحدى يديه- بينما أخذ يمسح العرق عن جبينه باليد الأخرى، وقال: "إن اليوم أكثر حرارة من أمس". فقالت زوجته وهي تتناول الكوب منه: "إنما يبدو لك أكثر حرارة لأنك متضايق إلى أقصى حد". فهمهم قائلا: "ربما كنت على حق. لعل لعب الورق يساعد على دفع الضيق. ولكننا ثلاثة فقط".فهز مساعده كتفيه، وحملق بعينيه إلى أعلى، ثم قال: " ألعاب الورق تنم عن إفلاس العقل، كما

يقول شوبنهاور".. فغمغم ناظر المحطة: "هذا قول ينم عن ذكاء.. ماذا قلت؟.. إفلاس العقل.. هـ- ـم- ـم!.. ومن الذي قال هذا؟"

- شوبنهاور.. فيلسوف ألماني

- فيلسوف؟.. هـ- ـم- ـم!

وتساءلت سونيا: "وهؤلاء الفلاسفة.. ماذا يفعلون؟.. أيشتغلون في الجامعات؟"

- ترى كيف أشرح لك هذا؟.. الفلسفة ليست منصبا، بل يمكن وصفها بأنها هبة طبيعية.. فمن الممكن أن يكون أي أمرئ فيلسوفا.. أي فرد يولد وعنده ميل إلى التفكير والبحث عن السبب والغاية في كل الأشياء. ومن المؤكد أن الفلاسفة يوجدون في الجامعات أحيانا، ولكنهم قد يوجدون أيضا في أي مكان.. حتى بين مستخدمي السكك الحديدية!

- وهل يكسبون كثيرا من المال.. أقصد أولئك الذين يكونون في الجامعات؟

- هذا يتوقف على ما لديهم من كفاءات

فتنهد ناظر المحطة وقال: "لو كان لدينا زميل رابع، لنعمنا بساعتين بديعتين.. في اللعب!"

وعاد حبل الحديث إلى الانقطاع.

* * *

وأخذت الطيور تشدو عاليا في كبد السماء الزرقاء، بينما راحت العصافير تصفر وهي تنتقل بين أفنان شجر الحور. وانبعث من داخل الدار بكاء طفل، فتساءل ناظر المحطة: "هل أرينا داخل البيت؟".

فأجابته زوجته: "طبعا"

– هناك شيء غير عادي في هذه المرأة. فهل لاحظته يا نيكولاي بتروفيتش؟

فقال نيكولاي بتروفيتش وهو بادي التفكير، متخذا مظهر الحكيم المستغرق في التأمل: "إن الشذوذ أب التفاهة!". فهتف الناظر: "ما هذا الذي قلته؟". وإذ أعيدت العبارة بلهجة المدرس الذي يلقن تلميذا، أغمض الناظر عينيه نصف أغماضة، في شيء من الانتشاء، بينما قالت زوجته في فتور: "من العجيب أنك تذكر ما قرأه، في حين أنني أنسى غدا ما أقرأه اليوم!.. ولست لأذهب بعيدا، فقد قرأت منذ أيام شيئا ممتعا للغاية في صحيفة "نيفا"، ولكني– لعمري– لا أستطيع اليوم أن أذكر فيم كان هذا الذي قرأته!". فقال نيكولاي بتروفيتش في إيجاز المطمئن إلى سداد رأيه: "إنها مسألة تعود". فابتسم ناظر المحطة قائلا: "هذا خير من ذاك الذي قاله.. ما اسمه؟.. شوبنهاور؟.. أو بتعبير آخر: كل جديد لا يلبث أن يصبح قديما!"

فقال المساعد: "أو العكس. فقد قال أحد الشعراء: "إن الحياة مقتصدة في حكمتها، فهي لا تفتأ تصوغ من القديم جديدا". وغذ ذاك

صاح الناظر: "لعنة الله على كل هذا.. من أين لك لهذه الأقوال؟.. أنها لتتدفق منك تدفق الماء من الصنبور". واخذ الناظر يضحك طربا، بينما ابتسمت زوجته ابتسامة عذبة، فأخذ نيكولاي بتروفيتش يحاول عبثا أن يكتم ارتياحه وعاد الناظر يقول: "من الذي قال تلك العبارة عن التفاهة؟"

– إنه بارياتنسكي.. شاعر!

– والعبارة الأخرى؟

– شاعر آخر، يدعى فونافوف!

فقال الناظر مطريا الشاعرين: "إنهما من المبدعين!".

وراح يردد وليهما في صوت منغوم، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة وكان الضيق من حياتهم يلاحقون بنوع من المداعبة. فهو يفلتهم من قبضته لحظة، ليعود فيشد عليهم بأقوى من ذي قبل، وإذ ذاك يرتدون إلى صمتهم من جديد، وهم يتأففون من الحر الذي زاد الشاي من وطأته، ولم يكن يلوح لهم من السهل غير الشمس!.. وعاد ناظر المحطة يستأنف حديثه الأول، قائلا: "إن أرينا– كما قلت– مخلوق غريب، فلست أتمالك أن أعجب من أمرها. لكأني بها قد أصيبت بلطمة ما، فهي لا تضحك قط، ولا تغني أبدا، ولا تكاد تتكلم.. ما أشبهها بجذع شجرة ميتة، في الأرض!.. ولكنها في عملها مجدة من الدرجة الأولى.. أما رعايتها لابنتنا ليليا، فممتازة.. انها لا تستكثر عمل شيء من أجل الطفلة"

وكان يتكلم بصوت منخفض، حتى لا تسمعه أرينا.. فقد كان ممن يرون أنه لا يجدر بالمرء أن يجامل الخدم الأجراء على الإطلاق، لأن المجاملة تفسدهم!.. ولم تلبث سونيا أن عارضته قائلة وهي تقطب، وفي عينيها معان خفية: "كف عن مثل هذا الحديث، فهناك أمور كثيرة لا تدرك أنت عنها شيئا!"

وإذ ذاك، شرع نيكولاي بتروفيتش يغني بصوت خافت، وهو يطرق المائدة بملعقته مع النغم: "أنا عبد الحب.. ولكني أفتقر إلى القوة، كي أفر معك.. يا شيطاني المحبوب!" فقاطعه الناظر صائحا: "ماذا؟.. ما هذا؟.. هي؟.. إنكما ولابد تسخران مني؟".. وانفجر مقهقها، وفكاه يهتزان، وقطرات العرق تتساقط من جبينه. فقالت سونيا: "ليس في الأمر ما يضحك على الاطلاق، بل يجيب أن نوليه اهتماما جديا، -لانها- أولا- تعني بالطفلة، وثانيا.. انظر إلى هذا الخبز!.. انه محترق، وكثير الملح.. فلماذا؟"

– لا شك في هذا، فالخبز ليس كما ينبغي، وعليك أن تؤنبيها لذلك. ولكني والله لم أتوقع هذا قط.. اللعنة على كل شيء!.. كيف يعقل هذا، وهي ليست أكثر من عجينة شوهاء!.. وهو.. من تراه يكون؟.. لوكا؟.. أفما يستحق أن أهزأ منه، ذلك النذل؟.. أم تراه ياجودكا، ذلك الهرم العديم الشارب؟

فقال نيكولاي بتروفيتش في اقتضاب: "جوموزوف"

– أحقا هو؟.. ذلك الرجل الهادئ الطباع؟.. دعك من هذا، فلابد أنك تهزأ!

واغتبط الناظر أيما اغتباط بهذا الموقف، فكان يضحك آنا حتى ينهمر الدمع من عينيه، ثم ينقلب آنا آخر إلى الجد فيقول إن العاشقين يجب أن يلقيا عقاب رادعا.. ولا يلبث أن يتمثل في خياله كلمات الهوى التي يحتمل أن تتبادل بينهما، فينطلق مرة أخرى في الضحك!.. وشرع في النهاية يسأل عن التفصيلات، وإذ ذاك تجهم وجه نيكولاي بتروفيتش، بينما أخذت سونيا تقاطعه. وقال ناظر المحطة المشاكس: "يا للقردين! صبرا، لسوف أجعلها أضحوكة!.. يا له من أمر عجيب!"

وظهر لوكا في تلك اللحظة قائلا: "إن المبرقة– آلة التلغراف– تدق"

– ها أنذا قادم.. اعط الإشارة لرقم ٤٢.

وسرعان ما كان ييمم مع مساعده شطر المحطة، حيث كان لوكا يدق الجرس إشارة للقطار. وأبرق نيكولاي بتروفيتش إلى المحطة التالية يستأذنها الجرس إشارة للقطار. وأبرق نيكولاي بتروفيتش إلى المحطة التالية يستأذنها قبل السماح للقطار رقم ٤٢ بالانطلاق إليها، بينما راح الناظر يذرع أرض غرفة المكتب، وهو يبتسم لنفسه قائلا لمساعده: "سندبر معا– أنت وأنا– حيلة لهما.. ألا ترى ذلك؟.. لمجرد دفع السأم!.. لسوف نجد فرصة لنضحك على الاقل!". فقال نيكولاي بتروفيتش وهو منهمك في الاتصال

البرقي: "لا بأس!".. ولم يزد، فقد كان من واجب الفلاسفة- على ما كان يعرف- أن يتوخوا الايجاز في حديثهم.

ولم يمض وقت طويل حتى سنحت لهما فرصة الضحك!

ففي ذات ليلة، زار جوموزوف أرينا في الحظيرة، حيث كانت- بايعاز منه وقبول من سيدتها- قد أقامت لنفسها سريرا بين مختلف أنواع الأخشاب.. وكان الجو في الحظيرة باردا، مشبعا بالرطوبة، وقد تكدست المقاعد المكسورة، والبراميل المهشمة، والالواح وكافة المهملات، في أشكال كانت تبدو في الظلام مخيفة!.. ومن ثم فقد كانت أرينا في وحدتها تشعر بالخوف، إلى درجة تقصي النوم عن عينيها، فتظل مستلقية على القش وهي مفتحة العينين، تتمتم في سرها بالصلوات

وجاء جوموزوف، فأخذ يعابثها بخشونة فترة طويلة، دون أن ينبس بكلمة واحدة. حتى إذا تعب، استلقى مستلما للنوم. بيد أن أرينا بادرت إلى ايقاظه قبل أن يستغرق في نومه، وهمست مذعورة: "تيموفي بتروفيتش!.. تيموفي بتروفيتش!".. فأجابها والنعاس لا يزال يغالبه: "ماذا هناك؟"

- لقد أغلقوا الباب دوننا بالقفل!

وإذ ذاك قفز واقفا وهو يقول: "ماذا جرى؟"

- لقد جاءوا إلى الباب فأغلقوه بالقفل

فهمس في جزع وغضب، وهو يزيحها عن طريقه: "إنك معتوهة!".. ولكنها قالت في ذلة: "تأكد من الأمر بنفسك!"

وسار متعثرا بين الاخشاب حتى بلغ الباب، فدفعه، ولكنه لم ينفتح. فأخلد إلى الصمت لحظة، ثم قال في اكتئاب: "إن هذا من عمل ذلك الجندي!"

وانبعث من الجانب الآخر للباب عاصفة من الضحك، فصاح جوموزوف: "دعني أخرج!". فتناهى إليه صوت الجندي يقول: "ما هذا؟".. فعاد يصيح: "أقول لك، دعني أخرج!".. ولكن الجندي قال وهو يبتعد: "في الصباح".. وهتف جوموزوف في استعطاف وحنق: "ولكنني مضطر إلى السهر في نوبة الحراسة.. لعنة الله على كل شيء!"

– سأسهر بدلا منك، فابق حيث أنت!

وابتعد الجندي، "المحوجي" مهموما: "يا لك من كلب قذر!".. ثم أردف ضارعا: "اسمع، ليس لك أن تحبسني هكذا.. وهناك ناظر المحطة، فماذا تراك قائلا له؟.. إنه لن يلبث أن يسأل عن جوموزوف بالتأكيد، فماذا تقول له إذ ذاك؟".. وهنا تمتمت أرينا في أسى: "أخشى أن يكون ناظر المحطة هو الذي أمره بأن يفعل هذا"..

فأخذ جوموزوف يردد في ذعر: "ناظر المحطة؟.. ولماذا يقدم على شيء كهذا؟".. وأخلد للتفكير لحظة، ثم صرخ فيها: "إنك تكذبين!". وكان ردها مجرد زفرة عميقة!

وقال "المحولجي" وهو يجلس على برميل بالقرب من الباب: "يا لله!.. ترى ما الذي سيحدث الآن؟.. لقد جلبت العار على نفس.. وكان كل هذا ذنبك أنت أيتها الوحش.. يا ذات الوجه الخنزيري!".. وهز قبضته في الاتجاه الذي كانت تنبعث منه أنفاسها، فلم تنبس أرينا ببنت شفة!

وكانت الظلال المعتمة تلفهما.. ظلال تشيع فيها رائحة التراب المشبع بالرطوبة، والكرنب المملح، وبعض الروائح الأخرى النفاذة، التي تثير الخياشيم وتهيجا. وتسللت خيوط من أشعة القمر خلال شقوق الباب.. وانبعث من الخارج عجيج قطار للبضاعة كان يغادر المحطة..

وصاح جوموزوف في غضب وسخط: "لم لا تقولين شيئا أيتها الحدأة؟.. ماذا أفعل الآن؟.. لقد أوقعتني في مأزق، ثم لم تعودي تجدين ما تقولينه! فكري في وسيلة ما، لعنة الله عليك!.. كيف أعيش بعد هذه الفضيحة؟.. يا ألهي، ما الذي أغراني على أن أعاشر مخلوقة كهذه!". فقالت أرينا بصوت خافت: "سأسألهم أن يصفحوا عني". فهتف: "ماذا؟".. وقالت وكأنها تتم عبارتها السابقة: "عسى أن يصفحوا!"

– وما قيمة ذلك لي؟.. جميل جدا! لسوف يغفرون لك، فما شأني أنا؟.. ألم أترد في العار؟.. لسوف يتخذونني أضحوكة على أية حال! ولم تنفض بضع دقائق حتى كان يلعنها ويكيل لها السباب. وراح الوقت يمر بطيئا بدرجة لا تطاق! وأخيرا، قالت المرأة بصوت متهدج: "اصفح عني يا تيموفي بتروفيتش!". فقال محنقا: "سأصفح عنك ببلطة أهشم بها رأسك..

هذا ما أتمنى أن أفعله!".. وعاد الصمت يسيطر عليهما مرة أخرى، وكان ثقيلا، ممضا، أشاع الشقاء في نفسي الشخصين المحبوسين في الظلام.

وما لبث أرينا أن قالت: "يا إلهي.. ليت النور ينبثق!". فصاح جوموزوف متوعدا: "أعقلي لسانك في فمك، والا أريتك كيف يكون النور!". وطفق يكيل لها الشتائم من جديد. ثم عاد الصمت يخيم عليهما ويعذبهما. وبدا كما لو أن الوقت كان يعتمد أن يزداد تباطؤا مع اقتراب الفجر وكأن كل دقيقة كانت تتثاقل في المرور عن قصد، وهي تجد تسلية في المهزلة الاليمة التي كان يعانيها الشخصان!

واستسلم جوموزوف– بعد برهة– لسنة من النوم، ولكنه لم يلبث أن استيقظ على صوت ديك خارج الحظيرة، فهمس: "أنت يا وجه الخنزير.. هل أنت نائمة؟". فتنهدت أرينا وقالت: "لا". فسألها في سخرية: "ولم لم تنامي؟.. هه؟". فهتفت باكية: "لا تغضب مني يا تيموفي بتروفيتش.. أرحمني.. أرحمني بحق المسيح، فأنا وحيدة، وليس لي من نصير.. أنت الوحيد الذي لي في الدنيا!.. ونحن، على أية حال..". ولكنه قطع عليها استرسالها في تلك الهمسات الهستيرية، قائلا في خشونة وغلظة: "كفى نباحا، ولا تحمليني على الضحك!.. امسكي لسانك، ولينزل الله نقمته على رأسك!"

وهكذا راحا يرقبان في صمت انصرام كل دقيقة. ولكن مرور الدقائق متوالية لم يعد عليهما بجدوى. وما لبث أن تسللت أشعة الشمس أخيرا

من شقوق الباب، مرسلة خلال الظلام خيوطا وهاجة.. وانبعث خارج الباب وقع خطوات، ثم وقف شخص ما لدى الباب برهة. ولكنه عاد ينصرف.. فتمتم جوموزوف مغيظا: "يا للمردة الخبثاء!". وعاد الاثنان ينتظران في صمت كان يضنى أعصابهما. ثم غمغمت أرينا: "رحماك يا إلهي العزيز!"

* * *

وبدا لهما أنهما يسمعان صوت أقدام تسترق الخطى. ثم تحرك مفتاح في القفل. وسمعا صوت ناظر المحطة يصيح في لهجته الحازمة: "جوموزوف.. خذ بذراع أرينا وقدها إلى الخارج.. أسرع.. حالا!". فغمغم جوموزوف: "تعالي يا هذه!"

وتقدمت أرينا فوقفت بجانبه ورأسها منكس على صدرها. وفتح الباب على مصراعيه، فبدا خلاله ناظر المحطة الذي قال: "أهنئكما بهذه الزيجة الجديدة!". وانحنى أمام أرينا، ثم صاح: "هيا.. لتعزف الموسيقى!" وهم جوموزوف بالخروج، فاستوقفه ضجيج يصم الآذان. وإذا لوكا وياجودكا ونيكولاي بتروفيتش يقفون أمام الباب. وكان لوكا يدق بقبضة يده قاع دلو معدني، ويطلق بصوته الصارخ– التي تتأذى منه الاسماع، والذي كان ينبعث بأعلى طاقته– ما يشبه النغم. بينما كان الجندي ينفخ في بوق من الصفيح، ونيكولاي بتروفيتش ينفخ خديه، ويلوح بيده كقادة

الفرق الموسيقية، وهو يطلق من بين شفتيه صوتا يشبه صوت الطبل: "بوم! بوم! بوم– بوم– بوم!"

وكان الدلو يبعث صوتا فظيعا، والبوق يعوى ويعول.. وانحني الناظر لفرط الضحك. وكذلك انفجر مساعده ضاحكا حين رأى جوموزوف المشدوه وقد شحب وجهه، وارتجفت شفتاه في اختلاج كان يرسم ابتسامة حائرة.. وخلفه وقفت أرينا ورأسها يمس صدرها، وهي جامدة كالحجر!.. وأخذ لوكا يشكل وجهه بأشكال كريهة، وهو يغني:

"همست أرينا في أذنه.. بما يحب كل عاشق أن يسمع!"

وتقدم الجندي ونفخ في بوقه المصوب نحو أذن جوموزوف. وصاح ناظر المحطة وهو يكاد يختنق من الضحك: "هيا.. هيا، تأبط ذراعها!".. فصرخت سونيا التي كانت تجلس عند مدخل الدار: "أواه، أواه!.. كفوا عن هذا، فاني أكاد أموت!".. وأخذ جسمها يهتز لفرط الضحك.. وقال نيكولاي بتروفيتش مغنيا:

"لن أحفل بأي عذاب، في سبيل لحظة من السعادة!"

وصاح ناظر المحطة: "مرحبا بالزوجين الجديدين"، فردد الجميع الهتاف، حين تقدم جوموزوف نحوهم: "مرحبا!".. وسارت أرينا في أعقاب جوموزوف. وكانت قد رفعت رأسها، وفغرت فاها، وتركت ذراعيها تتدليان إلى جانبيها في استرخاء، وراحت تحملق فيما كان أمامها، وان بدا جليا انها لم تكن تبصر شيئا

وصاحت سونيا: "ألا دع كلا منهما يقبل الآخر يا زوجي... ها، ها، ها!". فارتفع صوت نيكولاي بتروفيتش قائلا: "ليقبل كل منكما الآخر أيها العروسان!" ولم تعد ساقا ناظر المحطة تقويان على حمله، لافراطه في الضحك، فارتمى متهالكا على جذع شجرة، بينما ظل ضجيج الدلو ودوى البوق مسترسلين.. وأخذ لوكا يرقص وهو يغني: "ان حساء الكرنب الذي أعدته أرينا أكثر كثافة مما اعتادت أن تذيقنا!" وعاد نيكولاي بتروفيتش ينفخ شدقيه ويقلد صوت الطبل والبوق: "بوم– بوم– بوم!.. توت– توت–!.. بوم– بوم!.. توت– توت!"

* * *

وإذ بلغ جوموزوف مبني مساكن العمال، توارى وراء الباب. وبقيت أرينا واقفة في الفناء، يحيط بها جمع صاخب ارتفع صياحه وتهليله وضحكه.. وقد أخذ أفراده يصفرون في أذنيها، ويتواثبون حولها، في نوبة من المرح المهتاج.. وظلت واقفة وسطهم، بوجه جامد الاسارير، قذر، مشوه، يبدو عليه الغباء، وان أثار في النفس الرثاء!.. وصاح الناظر يقول لزوجته وهو يشير نحو أرينا وقد انحنت قامته لفرط الضحك: "لقد هرب الزوج وترك عروسه!". فالتفتت إليه أرينا، ثم سارت متجاوزة المساكن، وانطلقت نحو السهل، تشيعها الصرخات، والضحكات، والصخب وصاحت سونيا: "كفى.. دعوها وحدها!.. اتركوا لها الفرصة كي تعود، فان الغداء يجب أن يطهى.. ولا ينبغي أن تنسوا هذا!"

وانطلقت أرينا في السهل، حتى تجاوزت حدود حقل الحنطة.. وكانت تسير في بطء، كشخص مستغرق في التفكير. وصاح الناظر: "ما هذا؟.. ما هذا؟".. وكان يوجه تساؤله إلى المشتركين في هذه الهزلة، الذين تحولوا يستعيدون دقائق سلوك العروسين، وهم يضجون بالضحك والصياح. ولم ينس نيكولاي بتروفيتش في هذه المناسبة أن يلقى بإحدى جواهر الحكمة، إذ قال: "ليس جرما أن تضحك مما هو مضحك!" وكان يوجه الخطاب إلى سونيا، ثم أردف مستدركا: "ولكن من الضرر أن تسرف في الضحك!"

وحظيت المحطة في ذلك اليوم بنصيب كبير من الضحك، ولكن الغداء الذي حظيت به كان سيئا، لأن أرينا لم تعد لتطهو الأكل، فتولت زوجة ناظر المحطة هذه المهمة. ومع ذلك، فإن سوء الغداء لم يستطع أن يطغى على مرح القوم. ولم يخرج جوموزوف من مساكن العمال، ألا عندما حانت نوبة الحراسة. فلما خرج، دعى إلى مكتب ناظر المحطة، حيث قام نيكولاي بتروفيتش باجراء تحقيق معه عن السبل التي سلكها "ليغزو" قلب "فاتنته"، وناظر المحطة ولوكا يستمعان في طرب!

وقال نيكولاي بتروفيتش لناظر المحطة: "إنها أغرب قصة سمعتها من رجل عن الغواية والسقوط!". فقال جوموزوف وقد تمالك جأشه وابتسم في شيء من الاشمئزاز: "وما كان اشنعه من سقوط!".. فقد أدرك أنه إذا استطاع أن ينسج قصة تبدي أرينا في مظهر مستهجن، لتفادي الكثير من ضحك القوم منه. ولذلك لم يلبث أن قال: "لقد كانت تكتفي في البداية

بأن تغمز لي بطرف عينها!". فقال الناظر: "تغمز؟ ها، ها، ها!.. تصور ذلك يا نيكولاي بتروفيتش.. تصورها وهي تغمز.. شيء يفتت الأكباد!"

وتابع جوموزوف الحديث قائلا: "كانت تكتفي بالغمز، هكذا. فكنت أقول لنفسي: "ما أراك إلا تبغين شرا أيتها الفتاة!".. ثم قالت لي بعد ذلك: "إذا شئت فإنني على استعداد لأن أحيك لك بعض الاقمصة!" فهتف نيكولاي بتروفيتش: "ولكن الابرة ليست ضرورية!".. وأردف قائلا لناظر المحطة، على سبيل الايضاح: "هذه العبارة من إحدى قصائد نيكراسوف، كما تعلم. أمض في قصتك يا جوموزوفيا.

ومضى جوموزوف في قصته. وكان في البداية يلقى عناء في الاسترسال، ولكن الوحي لم يلبث أن تدفق عليه بالأكاذيب، إذ رأى أنها كانت تجد آذانا صاغية!

* * *

وكانت تلك التي راح يتكلم عنها، مستلقية– في تلك الأثناء– وسط السهل. فقد خاضت إلى مسافة بعيدة خلال ذلك البحر من الحنطة، ثم تهالكت متثاقلة على الأرض، ورقدت منكفئة على وجهها دون حراك. حتى إذا لم يعد في وسعها احتمال الشمس التي كانت تلهب ظهرها، استلقت ووجهها إلى السماء، وقد غطته بيديها لتحجب وهج الشمس عن عينيها.. وبدا حفيف سنابل الحنطة مهدئا لأسى تلك المرأة التي أثقلها العار.. وخيل إليها أن أزيز الجراد المسترسل كان يحمل إلى نفسها سلوى

وعزاء.. وكان الحر قاسيا، وفكرت في أن تصلي، ولكنها لم تستطع أن تتذكر كلمة واحدة من الصلوات.. وأخذت تتراقص أمام عينيها صور الوجوه الساخرة، بينما كانت تتردد في أذنيها أصوات الضحك، ودوى البوق، وصراخ لوكا.. وضاق صدرها بكل هذا، فكفت أزرار قميصها، وعرضت بدنها للشمس، عسى أن يخفف هذا من ضيق نفسها، فأخذت الشمس تلهب بشرتها، وأحست بشيء يخز صدرها، وتتابعت أنفاسها في شهقات متهدجة.. وراحت تهمس بين وقت وآخر: "الرحمة يا ألهي!".. ولكنها لم تتلق جوابا، سوى حفيف سنابل الحنطة، وأزيز الجراد

ورفعت رأسها فوق أمواج الحنطة، فرأت وهج السنابل الذهبية، وشاهدت خزان المياه الأسود العالي، يشرئب بقمته في الفضاء وراء المحطة.. ولمحت قمم بنايات المحطة. ولم يكن هناك– عدا هذه– سوى السهل الأصفر الذي لا يأتي البصر على حدوده، فخيل لأرينا أنها وحيدة في الدنيا بأسرها، وإنها ترقد في وسط هذه الدنيا تماما، وليس هناك من يخفف عنها وطأة الوحدة ووحشتها.. لا.. لا أحد.. اطلاقا!

وسمعت حوالي الغروب أصواتا تناديها: "أرينا! أرينا!.. أيتها البقرة الغبية!".. وكان أحد هذه الأصوات صوت لوكا.. كما كان بينها صوت الجندي!.. وكانت تطمع في أن تسمع صوتا ثالثا، ولكن هذا الصوت المنشود لم ينبعث بندائها.. ومن أجل هذا انبثق الدمع حارا من عينيها، وجرى مسرعا على خديها المليئتين بالبثور، ثم انحدر على صدرها.. وفيما

كانت تبكي، راحت تحك صدرها العاري بالأرض الجافة الدافئة، تحاول أن توقف ذلك اللهب الذي كان يستعر في صدرها، ويزداد تعذيبا لها، شيئا فشيئا!

وظلت تبكي، ثم ما لبثت أن كفت عن البكاء، وكتمت شهقاتها وكأنما كانت تخشى أن يسمعها أحد فيحرم عليها البكاء.. حتى إذا هبط الليل، نهضت فسارت في تؤدة، عائدة نحو المحطة.. وإذ بلغت البنايات وقفت مستندة إلى جوار الحظيرة، وظلت فترة طويلة تسرح بصرها في السهل الشاسع. وأقبل قطار من قطارات البضاعة، ثم رحل.. وسمعت الجندي يروي فضيحتها إلى عمال القطار، الذين ضجوا بالضحك، فردد السهل ضحكهم..

وتنهدت وهي تلصق جسدها بالجدار: "أرحمني يا إلهي!".. ولكن زفراتها لم تخفف من العبء الذي كان جثم على صدرها!

وعندما اقترب الصباح، تسلقت إلى القبو الذي يقوم تحت سقف المحطة المحدوب، فشنقت نفسها بحبل الغسيل!

وأرشدت رائحة العفن أهل المحطة إلى مكان أرينا بعد يومين. فذعروا في البداية، ثم أخذوا يبحثون الأمر، ويتناقشون فيمن كان خليقا بأن يحمل وزر ما جرى. فأثبت نيكولاي بتروفيتش– بما لا يدع مجالا للشك– أن جوموزوف هو المذنب. فصوب ناظر المحطة لكمة إلى صدغ "المحوجي"، وأوصاه بأن يكتم ما حدث!

ووفد موظفون رسميون فأجروا تحقيقا انتهوا فيه إلى أن "أرينا" كانت تعاني لوثة. وصدر الأمر إلى بعض عمال السكك الحديدية بنقل الجثة إلى السهل لدفنها. فلما تم ذلك، عادت الطمأنينة تسيطر على المحطة.. وعاد أهلها يعيشون في الحياة أربع دقائق كل يوم، وهم يكتوون بالوحدة، والسأم، والقيظ، والكسل.. ويشيعون القطارات التي كانت تندفع مبارحة المحطة– مخلفة إياهم وراءها– في حسد وغيرة!

... وفي الشتاء، عندما تهب الرياح الجليدية في صراخ وعويل عبير السهل، فتكتنف المحطة بالجليد والأصوات الرهيبة، تغدو الحياة هنا أكثر عزلة ووحشة مما هي في أي وقت آخر!

غرام الغجرية

هبت من البحر ريح باردة، رطبة، حملت إلي السهول اللحن الشجي الذي كان ينبعث من الأمواج وهي تتكسر على الشاطئ، وخفيف الشجيرات الجافة. وكانت تشتد من آن لآخر، فتسفو أوراق الشجر الذابلة.. وتدفع بها الريح إلى النار التي كنا نسمر حولها، فتذكي اللهب، وإذ ذاك، كانت ظلمة ليل الخريف ترتعد وتتراجع في ذعر ووجل، كاشفة لنا عن لمحة من المراعي الشاسعة إلى اليسار، ومن البحر المترامي الأطراف إلى اليمين.. وأمامي، كان الشيخ الغجري «مقار شودرا» لا يغفل عن جياد معسكره التي كانت ترعى على بعد نحو خمسين يارد منا. وكان يستلقي في مواجهتي في وضع جليل مهيب، غير حافل بالريح الباردة التي كانت تفتح معطفه القوقازي، وتلفح بسياطها صدره العاري الذي جلله الشعر الأبيض.. وأخذ يشد – في تواتر رتيب – أنفاسا من غليونه الكبير، ثم يطلق الدخان من فمه وأنفه في سحب كثيفة، وهو يسدد بصره فوق رأسي نحو ظلمة المراعي الساكنة، دون أن يكف عن الكلام، ودون أن يبدي أتفه جهد ليقي نفسه لفحات الريح القاسية!

وراح شودرا يقول: «إذن، فأنت تجوب العالم، ضاربا في أرجائه؟.. هذا خير لك وأجدي، وقد أحسنت الاختيار أيها الصقر الصغير. فهذا هو الطريق الوحيد في الحياة!.. طف بالعالم وأشهد ما يحتويه، حتى إذا

رأيت ما فيه الكفاية ارقد ومت!».. وما أن سمع اعتراضي على قوله: «هذا هو الطريق الوحيد في الحياة»، حتى هتف متسائلا: «الحياة؟ رفاقك وأقرانك؟.. لم تشغل بالك بهذه الأمور؟.. أو لست أنت الحياة ذاتها؟.. أما عن رفاقك وأقرانك، فقد اعتادوا أن يمضوا في الحياة، وسيظلون يمضون فيها قدما بغيرك. أتظن حقا أن هناك من هو بحاجة إليك؟.. إنك لست خبزا يؤكل، ولا عصا يتكأ عليها.. ولهذا فليس هناك من يريدك!.. إنك تقول: تعلم، وعلم الغير.. فهل بوسعك أن تتعلم كيف تسعد الناس؟ لا، ليس هذا بوسعك. ولن تتمكن من السعي لتعليم الآخرين قبل أن يشيب شعرك.. وما الذي ستلقنهم إياه عندئذ؟ إن كل إنسان يعلم ما هو بحاجة إليه، والعقلاء من الناس يقنعون بما تقدمه لهم الحياة.. أما الأغبياء، فلا يأخذون شيئا.. ولكن كل إنسان يتعلم بنفسه!

«إن الناس مخلوقات غريبة.فهم جميعا يتزاحمون، ويدوس الواحد منهم الآخر، في الوقت الذي يوجد فيه كل هذا الفراغ الفسيح».. ولوح بيده مشيرا إلى البراري الشاسعة، ثم تابع الحديث قائلا: «وكلهم يعملون.. لماذا؟ لا أحد يعرف!..

كلما شاهدت شخصا يحرث حقلا، حدثت نفسي قائلا: ها شخص يريق وقته وعرقه على الأرض، قطرة بعد قطرة، لا لشيء إلا ليرقد في هذه الأرض ذاتها في النهاية، ويتحلل!.. وسيموت وهو على ما ولد عليه من جهل وغباء، دون أن يترك شيئا وراءه، ودون أن يرى شيئا غير حقله!..

افهذا هو ما خلق لأجله؟.. هل ولد ليحفر في الأرض دون أن يجد فسحة من الوقت، ولو ليحفر لنفسه قبرا؟.. هل ذاق الحرية مرة؟.. هل عرف شيئا عن سعة هذه البراري؟ هل تملك قلبه لهدير البحر؟.. إنه عبد رقيق.. عبد من يوم مولده إلى يوم مماته!! فهل في وسعه أن يفعل شيئا إزاء هذا؟ .. لا.. انه لا يملك سوى أن يشنق نفسه إذا وجد من نفسه الشجاعة ليفعل ذلك!

«أما أنا وقد بلغت الثامنة والخمسين – فقد رأيت ما إذا سجل على الورق لما وسعته ألف حقبة كتلك التي نحملها. هل في إمكانك أن تذكر اسم أرض لم أرها؟.. لا يمكنك.. بل إنني ذهبت إلى أماكن لم تسمع بها قط، وهذا هو السبيل الوحيد للحياة.. تنقل من مكان إلى آخر، ولا تبق طويلا في مكان واحد، فليس ثمة ما يدعو إلى إطالة البقاء!.. يكفيك أن ترى توالى النهار والليل في حركة دائمة، يطارد أحدهما الآخر حول الأرض بالطريقة ذاتها التي يتعين عليك أن تطارد بها أفكارك أذا أردت أن لا تفقد الرغبة والمتعة في الحياة.. فان الإنسان خليق بأن يفقد هذا الاستمتاع إذا ما غالي في الاهتمام بالحياة. لقد فعلت أنا هذا مرة.. أجل، فعلت ذلك أيها الصقر الصغير!.. كان ذلك عندما أودعت السجن في (غاليسيا).فقد رحت – في غمرة التعاسة –أسائل نفسي:«لماذا ولدت؟.إنها لتعاسة كبرى أن تحبس في سجن.. آه، يا لها من شقوة!»لقد كان قلبي يعتصر عصرا كلما أطللت من النافذة على الحقول المكشوفة المنبسطة!.. من ذا الذي

يستطيع أن يقول لماذا ولد؟.. لا أحد.ومن ثم فلا ينبغي للمرء أن يطرح على نفسه هذا السؤال.. بل أمض في الحياة، وكن شكورا لأنك حي!.. أضرب في أرجاء الأرض، وشاهد ما يستحق المشاهدة، وبهذا لن تشعر بالتعاسة.. ولكنني كدت في تلك المرة أن أشنق نفسي بحزامي!

«ولقد حدث ذات مرة أن تحدثت إلى شخص معين.. كان رجلا رزينا متزنا، روسيا مثلك. فقال لي أن المرء لا ينبغي أن يعيش كما يحب، وإنما كما أشير عليه في كلمة الله، فإذا ما عاش المرء مطيعا لله أعطاه الله كل مطلبه. وكان هذا الرجل يرتدي أسمالا بالية، فسألته أن يطلب إلى الله أن يعطيه ملابس جديدة، فغضب مني ولعنني وطردني، وهو الذي كان يقول لي – قبل ذلك بدقيقة واحدة!– إن على المرء أن يحب جيرانه ويغفر لهم!.. فلم لم يغفر لي، إن كنت قد أهنته؟.. هذا هو طراز أولئك الذين يعظونكم!.. أنهم يعلمون الناس أن يقتصدوا في الأكل، في حين أنهم – هم بالذات – يأكلون عشر مرات في اليوم!»

وبصق الغجري على النار، ثم أخلد إلى الصمت وهو يحشو غليونه بالتبغ. وأخذت الريح تئن في خفوت، وصهلت الجياد في الظلام.. وترددت في الجو نغمات حزينة، حنون، حملتها الريح من معسكر الغجر..

كانت «نونكا» – ابنة شودرا الحسناء – تغني. فقد كنت أعرف نبراتها العميقة، وصوتها الذي كانت تشيع فيه دائما لهجة تنم عن السلطان وعدم الرضي، سواء وهي تغني، أو وهي تنطق بمجرد تحية مقتضبة!.. وكان

كل ما تراه في أية ملكة من الملكات، يظهر متجسما على قسمات وجهها.. كما كان يشع في ظلال عينيها السوداوين وميض يوحي بشعورها بجمالها الطاغي، وبسخطها على كل شئ عدا نفسها!

وناولني مقار غليونه قائلا:«هل لك أن تدخن؟.. إنها تجيد الغناء، أليس كذلك؟أتحب أن تظفر بفتاة كهذه تبادلك الحب؟ لا!.. هذا خير لك، إذ لا ينبغي أن تثق في امرأة!.. ابتعد عنهن!.. إن المرأة تجد لذة في تقبيل الرجل، تفوق ما أجد أنا في تدخين غليوني.. ولكنك تفقد حريتك بمجرد أن تقبلها مرة واحدة، لأنها تقيدك بقيود خفية لأفكاك منها، فتضطر إلى أن تعطيها نفسك قلبا وقالبا!.. هذه هي الحقيقة، فاحذر النساء!.. أنهن كاذبات، تقسم الواحدة منهن على أنها تحبك أكثر من أي شئ في الحياة، حتى إذا آلمتها مرة – ولو بوخز إبرة – مزقت قلبك تمزيقا!.. إنني أوقن مما أقول، لأنني أعرف أشياء كثيرة، وسوف أقص عليك – إذا شئت – قصة واقعية، فتذكرها دائما، لأنك إذا فعلت ظللت طول حياتك حرا كالطير!

«حدث ذات مرة أن كان هناك غجري يدعى زوبار.. لويكو زوبار، وكان شابا جريئا لا يعرف الخوف سبيلا إلى نفسه، وقد ذاع صيته في المجر، وامتد إلى بوهيميا وسلافونيا وجميع الأقطار المحيطة بالبحر.. ولم تكن في هذه الأقطار قرية لا تضم على الأقل أربعة رجال أو خمسة أقسموا على قتل «زوبار».ولكنه لم يصب بأذى، بل ظل على قيد الحياة.. فإذا تاقت

نفسه إلى جواد، فما كانت فرقة كاملة من الجنود تستطيع أن تحول بينه وبين امتطائه والعدو به.. لم يكن يخشى أحدا! لا، لم يكن زوبار يخشى أحدا، بل إنه كان قادرا على أن يسلخ الشيطان نفسه وكل أفراد زمرته، لو سولت لهم أنفسهم أن يعترضوه، أو على الأقل كان يلعنهم جميعا ويصفعهم.. صدقني!.. ولقد كانت جميع معسكرات الغجر تعرف زوبار، أو سمعت عنه!.. ولم يكن يحب في الدنيا شيئا غير الجواد، ولكن حبه له لم يكن ليدوم طويلا، اذ كان لا يلبث أن يضيق به فيبيعه، ويهب الثمن الذي يتقاضاه في مقابله لأي شخص يطلبه.. لم يكن ليبخل بشئ على أحد، بل انه لم يكن يحجم عن أن ينتزع قلبه من صدره، لو ظن أن هناك من يحتاج اليه!..

هكذا كان زوبار! «وحدث في ذلك الوقت الذي أحدثك عنه — أي منذ نحو عشر سنوات — أن كانت قافلتنا تطوف باقليم (بوكوفينا). وكان بعض أفراد منا يجلسون معا في إحدى ليالي الربيع، وبينهم دانيلو، الجندي الذي قاتل تحت قيادة «كوسوت»، والشيخ «نور» و «رادا» ابنة دانيلو.. هل رأيت ابنتي نونكا؟ إنها ملكة بين الجميلات الفاتنات، ولكنها مع هذا تحظى بشرف عظيم اذا قورنت برادا التي كان جمالها يجل عن الوصف! ربما تسنى تصويره بأنغام الكمان، على أن يكون العازف قديرا، يعرف دقائق الآلة معرفته لنفسه!

«ولقد راح كثيرون من الرجال ضحايا حب رادا .وحدث مرة — في مورافيا — أن صعق ثري متقدم في السن عند رؤيته لها، فسمر مذهولا على ظهر جواده لا يحير حراكا، وراح يهتز من أخمص قدميه الى قمة رأسه، وكأنه مصاب بالحمى!.. وكان الرجل في أكمل زينة، وكأنه إبليس في إجازة!.. فمعطفه الاوكراني الطراز موشى بخيوط من ذهب، بينما تدلى على جانبه حسام مرصع بأحجار كريمة كانت تتألق عند كل حركة من الجواد، وكأنها ومضات برق خاطف.. وكانت قبعته مخملية زرقاء بلون السماء.لقد كان هذا الشيخ من علية القوم!.. ولقد ظل جالسا على ظهر جواده ينظر إلى رادا كالمشدودة، وأخيرا استطاع النطق فقال لها: «إنني أعطيك كيسا متخما بالنقود في مقابل قبلة واحدة!». فحولت نظرها عنه مما حمله على تغيير لهجته قائلا: «اغفري لي إذا كنت قد أهنتك، ولكن.. لعلك تمنحينني ابتسامة على الأقل!».

وألقى بكيس النقود عند قدميها، وكان كيسا منتفخا، ولكنها اكتفت بأن داسته بقدمها حتى غاص في التراب، وكأنها لم تره! فصاح الرجل يقول: «يا لها من فتاة!». ثم ساط الجواد فقفز وأثار موجة كثيفة من الغبار وهو يعدو بصاحبه بعيدا عن الفتاة!

«وعاد الرجل في اليوم التالي، فسأل في صوت دوى في أرجاء المعسكر عمن يكون والدها.. وإذ انبرى له دانيلو، قال له الرجل: «بعها لي، واذكر الثمن الذي يروق لك؟». «إن النبلاء فقط هم الذين يبيعون كل شئ — من

الخنازير إلى ضمائرهم! أما أنا فقد قاتلت تحت أمرة كوسوت، فلست أبيع شيئا!».. فزار الرجل الثرى ومد يده إلى حسامه، ولكن أحد رجالنا ألقى بجذوة نار في أذن جواده فقفز وطار بسيده طيرا. وبادرنا إلى هدم المعسكر، ونزحنا عن المكان. ولكننا بعد مسيرة يومين كاملين رأينا الرجل فجأة يأتي وراءنا. وصاح بنا قائلا: «أقسم بربي أن نيتي شريفة!.. زوجوني الفتاة أقتسم معكم جميع ما أملك، وإني لعظيم الثراء!»..

وكان يحترق وجدا، ويترنح على جواده وكأنه ريشة في مهب الريح.. فأخذنا نفكر فيما قال. وما لبث دانيلو أن قال لابنته بصوت خافت: «ما رأيك يا ابنتي؟»، فقالت رادا: «لو رأيتم أنثى النسر تأوى إلى عشها برفقة الغراب وكان ذلك بمحض إرادتها، فماذا تقولان عنها؟». فانفجر دانيلو ضاحكا، وضحكنا جميعا!..

وهتف دانيلو: «لا فض فوك يا بنيتي!.. هل سمعت يا سيدي؟.. لقد خسرت القضية فاذهب وتودد الى حمامة، فإنها أكثر وداعة!».. وسرنا بعد ذلك في طريقنا!

«وعندئذ خلع الرجل الثرى قبعته وطوح بها إلي الأرض. ولكز جواده فعدا بسرعة حتى لقد زلزلت الأرض تحت حوافره.. هكذا كانت رادا أيها الصقر الصغير!»

واستطرد شودرا في حديثه قائلا: «ولنعد إلى حديثنا الأول.. قلت إننا كنا في إحدى الليالي جالسين في المعسكر، وإذا بنا نسمع على حين

فجأة صوت موسيقى تقترب من ناحية الخلاء.. وما كان أروعها! كانت أنغاما تجعل الدم يتدافع في الشرايين، وتحمل المرء لتسري به إلى عوالم مجهولة ولقد ملأتنا نشوة، وجعلتنا مشوقين إلى الإقدام على عمل جليل هائل، إذا خبرناه مرة لم تعد بنا حاجة إلى مواصلة الحياة، فإذا ظللنا أحياء بعده، أصبحنا سادة العالم بأسره!»

«وما لبث أن برز من جوف الظلام جواد يمتطيه شخص كان يعزف على الكمان، فتقدم نحونا، ووقف عند نيران معسكرنا، ثم كف عن العزف، وأخذ يتطلع إلينا وهو يبتسم.. وهنا هتف دانيلو مرحبا: «زوبار!.. أهذا أنت؟».. كان ذلك – إذن – هو لويكو زوبار!.. وكان شارباه يتدليان إلى كتفيه، حيث كانا يختلطان بشعره الطويل المجعد. كما كانت عيناه تومضان وكأنهما نجمتان براقتان.. أما ابتسامته فكانت مثل إشراق الشمس في وضح النهار.. وبدا هو وجواده كما لو كانا قد قدا من قطعة واحدة من الصوان!.. وظل واقفا أمامنا ووجهه يلوح – على وهج النار – مصطبغا بلون الدم، وأسنانه الناصعة البياض تلمع كلما ضحك.. ووالله لقد أحببته حبي لنفسي، ولو أنه لم يبادلني كلمة واحدة، ولا أحس بوجودي!

«أجل أيها الصقر الصغير!.. إن في الدنيا رجالا من هذا النوع، تستسلم لهم بمجرد أن تتطلع إلى عيونهم، وأنت تشعر بالفخر لا بالخجل، لأنك تحس بأنك أصبحت – في وجودهم – خيرا مما كنت من قبل !.. والذين هم على هذه الشاكلة قليلون، ولعل في ذلك خير، لأن الأشياء

الطيبة إذا كثرت في هذا العالم لم تعد تعتبر من الطيبات!..» ولكن اسمع ما حدث بعد ذلك. فقد قالت له رادا: «إنك تجيد العزف يا زوبار، ولكن هلا نبأتني عمن صنع لك هذه الكمان العذبة الصوت؟».. فضحك الشاب وأجاب قائلا: «لقد صنعتها بنفسي، لا من الخشب، وإنما من صدر جارية أحببتها كثيرا، كما أن أوتارها من أوتار قلبها. ولا تزال كماني هذه تصدر أحيانا بعض نغمات كاذبة، ولكني أعرف عادة كيف أسيطر عليها بقوسي!»

«والرجل يحاول دائما أن يسدل على عيني الفتاة غشاوة تحملها على أن تتوق إليه، لكي يحمي قلبه من سهام عينيها. ولم يكن زوبار يختلف في ذلك عن سواه، ولكنه لم يكن يعرف مع من وقع في تلك المرة، اذ اكتفت رادا بأن أشاحت عنه، وقالت وهي تتثاءب: «عجبا، لقد قالوا لي أن زوبار حكيم وحصيف. يا لها من غلطة!» .. وسارت مبتعدة، فقال زوبار وقد أومضت عيناه ببريق خاطف وهو يترجل عن جواده: «أن لك أسنانا حادة يا فتأتي الجميلة!».. ثم تحول إلينا قائلا: «تحياتي لكم أيها الأصدقاء. لقد جئت لأزوركم!».. فأجاب دانيلو: «يسرنا أن نراك بيننا!».. وتبادلنا القبلات، وتحدثنا قليلا، ثم أوينا إلى مضاجعنا، ونمنا نوما عميقا. وفي الصباح وجدنا زوبار معصوب الرأس، فماذا حدث له؟.. بدا أن جواده ركله في الليل.. ولكننا حين عرفنا من كان ذلك الجواد، ابتسمنا بيننا وبين أنفسنا، وابتسم دانيلو أيضا!.. ولكن هل كان من المعقول أن يكون زوبار

– كسوا – غير كفء لرادا؟.. الواقع أنها – رغم جمالها – كانت ذات نفسية تافهة، ولم تكن الحلي الذهبية كلها في العالم بمستطيعة أن تعلي من قدرها شيئا!»

ومضى شودرا في روايته قائلا: «دعنا من هذا.. لقد ظللنا نعيش في المعسكر، والظروف مواتية، ولويكو زوبار يقيم بيننا، كخير رفيق!.. كان في حكمة الشيوخ، غزير المعرفة، يجيد قراءة الروسية والمجرية وكتابتهما، حلو الحديث، لطيف المعشر.. وكان بوسعي أن أجلس الليل بطوله أصغي إلى حديثه الطلي دون ملل. أما عزفه على الكمان، فلتنقض على صواعق السماء إذا قلت أن هناك من يعادله في هذا، أو حتى يدانيه!.. كان إذا أجرى قوسه على الأوتار، قفزت القلوب في الصدور، فإذا عاد بها، تحفزت كل جارحة في كيانك منصتة!.. أما هو، فكان يمضي في العزف وهو يبتسم.. ولو أنك سمعته لشعرت بأنك تريد أن تبكي وتضحك في آن واحد!.. فأنت تسمع في لحظة شخصا ينتحب بمرارة، ويصرخ مستنجدا، وتحس كأن مدية تمزق جنبيك بمرارة، ويصرخ مستنجدا، وتحس كأن مدية تمزق جنبيك، ثم تخال – في اللحظة التالية – أن المراعي تروي للسماء قصة.. قصة حزينة!.. ولا تلبث الأنغام أن تصور لك أن غانية تبكي وهي تودع حبيبها.. وفي الدقيقة التالية، تسمع الحبيب يناديها من البراري.. ثم، فجأة، ينقض نغم كأنه صاعقة من السماء، يكاد يجعل الشمس ذاتها ترقص!.. هكذا كان يعزف أيها الصقر الصغير!

«إنك لتحس بأنغامه تهز كل جارحة في جسدك، وبأنك تغدو عبدا لهذه الأنغام.. فلو أن زوبار صاح فجأة: «انتضوا خناجركم أيها الرفاق!»، لشهر كل منا خنجره في وجه أي شخص يشير لنا نحوه.. كان في وسع زوبار أن يلف أي شخص حول إصبعه الصغير، ولكن الجميع كانوا يحبونه كل الحب.ومع ذلك فقد ظلت رادا لا تحفل به. والانكي من ذلك أنها كانت تتعمد السخرية منه، فأصابت قلبه بجرح.. وكان جرحا قاسيا.. فكان الشاب يعض على شاربه بنواحذه، وكانت عيناه تغدوان إذ ذاك أعمق من الآبار، يومض فيهما بريق خاطف يبعث الرعب في القلوب. وكان في الأمسيات يضرب في البرية، حيث يقضي الليل وكمانه تنوح حتى الصباح.. كانت تبكي حريته المفقودة! وكنا نستلقي، ونصغي، ونفكر فيما قد يحدث بعد ذلك.. وجميعنا يعلم أنه إذا تدحرج حجران ضخمان، كل نحو الآخر، فأنهما كفيلان بأن يسحقا كل ممن يعترض طريقهما.. وهذا ما كانت تتجه إليه الظروف!

«وفي ذات ليلة جلسنا طويلا أمام النار، نبحث في شئوننا.

فلما تعبنا من الحديث، تحول دانيلو إلى زوبار قائلا: «عن لنا يازوبار، لتبهج قلوبنا!».. فنظر زوبار إلى رادا التي كانت مستلقية على الأرض في بقعة غير بعيدة، تتطلع إلى السماء، ثم جر قوسه على أوتار الكمان، فأخذت النغمات تتدفق عذوبة، وكأني القوس يمس أوتار انتزعت فعلا من قلب فتاة حسناء!.. واخذ زوبار يغني: هيو.. هيو! أن قلبي

يلتهب، والمراعي ممتدة كالبحر. وجوادانا الباسلان يعدوان كالريح، يحملاننا.. أنا وأنت!»

«وهنا أدارت رادا رأسها إليه، ودفعت نفسها على أحد مرفقيها، ثم ضحكت في وجهه ساخرة.. وتضرج وجه زوبار، ولكنه وأصل الغناء:

«هيو، هيو! أن رفيقي صادق، فساعة الفجر قد دنت.. والبراري متشحة بظلال الليل، ولكنا سنرقى إلى السماء فالهبى جوادك لتقابلي النهار، الذي انبثق على السهل «ولكن حذار، حتى لا يمس عرف الجواد وجه القمر!»

«وكان غناء رائعا، وشدوا جميلا لا مثيل له اليوم، ولكن رادا دمدمت قائلة: «لو كنت مكانك لما ارتقيت إلى هذا الارتفاع يالويكو زوبار، إذ انك قد تهوى في الوحل فتفسد هذين الشاربين الجميلين!».. ورمقها زوبار بنظرة حانقة، ولكنه لم يقل شيئا، إذ استطاع أن يسيطر على أعصابه.ثم مضى مستأنفا الغناء:

«هيو، هيو! إذا جاء ضوء النهار، ووجدنا معا نائمين..

«فستتضرج وجناتنا بأرجوانية الحياء، ونحن نقفز من فراشنا!»

وقال دانيلو: «أنها انشودة رائعة حقا! ليسخطني الشيطان غليونا إذا كنت قد سمعت خيرا منها!».. أما الشيخ «نور» فقد راح يمشط لحيته بأصابعه، ويهز كتفيه طربا. وغمرنا جميعا الاغتباط، وأخذتنا النشوة من

هذه الأنشودة الجميلة. ولكن رادا لم تعجب بها، وإنما قالت: «لقد سمعت مرة بعوضة تحاول تقليد صوت النسر!».. وكأنما قذفت – بقولها هذا – وجوه الحاضرين بالثلج، فقال لها والدها: «لعلك مشوقة إلى ضرب السياط يا رادا!». ولكن زوبار ألقى قبعته إلى الأرض وقد تجهم وجهه وأصبح بلون التراب، ثم قال: «صبرا يا دانيلو، فالفرس الجموح تحتاج إلى عنان من الصلب!.. ألا زوجني ابنتك؟».. فقال دانيلو ضاحكا: «هذا قول بديع.. خذها إن استطعت!».. فقال زوبار: «حسنا».ثم تحول إلى رادا وقال: «اهبطي أيتها الغانية من عليائك، وأصغي إلى ما أقول. لقد عرفت كثيرات من الفتيات.أقول كثيرات، ولكن أيا منهن لم تتمكن من الاستيلاء على قلبي كما فعلت أنت!.. أواه يارادا!.. لقد استعبدت روحي.وليس لي في الأمر حيلة، فما قدر لابد أن يكون، ولم يخلق بعد الجواد الذي يستطيع أن يحمل الإنسان بعيدا عن نفسه!.. إنني أشهد الله، وأشهد ضميري، على أنني اخترتك زوجة لي، وبحضور والدك وجميع هؤلاء الناس.ولكني أحذرك من أية محاولة للحد من حريتي، فأنا شخص يعشق الحرية، وسأعيش دائما كما أهوى!» «وسار نحوها وقد زم شفتيه، وأبرقت عيناه. ورأيناه يمد يده إليها، فحدثنا أنفسنا قائلين: ها هي ذي رادا قد نجحت في النهاية في وضع اللجام في فم جواد البراري الجامح.

ولكن ذراعيه ارتفعتا في الهواء فجأة، وسقط على الأرض، فاصطدم رأسه بها!

«فماذا تراه قد حدث؟.. لقد خيل إلينا أن رصاصة أصابت قلبه، ولكن الواقع أن رادا لوحت فجأة بسوط التف حول ساقيه، ثم جذبت السوط في قوة فوقع الشاب على الأرض!

«وعادت الفتاة تستلقي في مكانها بغير حراك، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة خبيثة!.. ورأينا زوبار يستوي جالسا، ثم يمسك رأسه بيديه، وكأنما يخشى عليه أن ينفجر.. وما لبث أن وقف بهدوء، واتجه نحو الخلاء، دون أن يلقي نظرة على أحد، فهمس «نور» في أذني قائلا: «يحسن بك أن تراقبه ولا تتركه يغيب عن نظرك!».. ومن ثم تسللت وراءه إلى البرية في ظلام الليل البهيم»

وسكت «مقار»، وأفرغ غليونه من بقايا التبغ المحترق فيه، ثم أعاد حشوه بتبغ جديد. ولففت معطفي حول جسمي، واضطجعت في مجلسي لأدرس وجهه المغضن الذي لوحته الشمس والهواء. وكان يدمدم لنفسه ويهز رأسه، وقد التوى شارباه الاشيبان، وتلاعبت الريح بشعره، فذكرني شكله بشجرة بلوط عفا عليها الزمان، وأصابتها الصاعقة، ولكنها بقيت قوية، جبارة، فخورة بهذه القوة!.. ومضى البحر يهمس للرمال، والريح تحمل صوت همسه إلى المراعي. وتوقفت «نونكا» عن الغناء. وكانت السحب التي أخذت تتجمع، تجعل ليل الخريف أشد ظلاما عن ذي قبل. وعاد مقار يستأنف حديثه:

«وظل لويكو يجر قدميه، واحدة بعد الأخرى، وهو سائر وقد نكس رأسه على صدره، وأرخى ذراعيه إلى جنبيه، وكأنهما سوطان. حتى إذا وصل إلى شاطئ جدول صغير، جلس على حجر وراح يئن أنينا خافتا حزينا كاد يفتت قلبي. ولكنني لم أقترب منه.. فإن الكلمات لا تخفف من حزن الرجل وآلامه.. أليس كذلك؟.. وكانت هذه هي المشكلة!

«وظل جالسا في مكانه ساكنا.. ومضت عليه في هذا الوضع ساعة، ثم أخرى، فثالثة، دون أن تبدو منه حركة ما. وكنت مستلقيا غير بعيد عنه.. وكان الجو قد صفا، وأخذت المراعي تسبح في ضوء القمر الفضي، فأصبح في الإمكان رؤية الأشياء البعيدة «وعلى حين غرة، رأيت رادا قادمة تهرول نحونا من المعسكر، فغمرني فرح طاغ، وقلت لنفسي«هذا جميل منك يارادا الباسلة!».. وتقدمت الفتاة نحو زوبار، فبلغته دون أن يسمع وقع قدميها، ثم وضعت يدها على كتفه.. وأجفل الشاب، فأنزل يديه ورفع رأسه. وفجأة، انتصب واقفا على قدميه وشهر مديته!.. يا لله!.. لقد خلت أنه سيقتلها، وهممت بأن أقفز لا تدخل بينهما واستغيث بالقوم، لولا أنني سمعت رادا تقول له: «ألق هذه المدية وإلا ألهبت رأسك!».. ودققت النظر، فرأيت رادا تحمل مسدسا في يدها وقد صوبته إلى رأس لويكو، فقلت لنفسي: «يا لها من شيطانه بنت شيطان.. إنهما متكافآن في القوة، على الأقل!»

.. وانتابتني الحيرة وأنا أفكر فيما قد يحدث بعد ذلك. وسمعتها تقول: «إنني لم آت لأقتلك، وإنما جئت أسالمك!».. ثم وضعت المسدس في حزامها، وقالت: «إبعد هذه المدية!».. فأبعدها، ونظر إليها بعينين ينبعث منهما الشرر. وكان منظرا رهيبا في الواقع. فقد كانا حيوانين هائجين، وكان كل منهما بديعا، وجريئا.. ولم يكن ثمة من يراهما غير القمر الساطع وأنا!

«وعادت رادا تقول للشاب: «أصغ إلى يا زوبار.. إنني أحبك!».. على أن الشاب اكتفى بهز كتفيه، وكأنه مقيد اليدين والقدمين، فمضت هي تقول: «لقد رأيت رجالا عديدين، ولكنك أشجعهم وأجملهم!.. ولقد كان كل منهم على استعداد لأن يزيل شاربيه لو أنني طلبت ذلك منه! بل ولأن يجثو تحت قدمي إذا أردت ذلك.. ولكني لم أحفل بهم، فلم يكن بينهم واحد شجاع.. كانوا بالنسبة لي كالنساء، ولم أجد بين الغجر غير قليلين من البواسل.أجل، لم يبق يازوبار بين الغجر غير عدد ضئيل من الشجعان.. ولم يسبق لي أن أحببت أحدا يازوبار، ولكني أحبك أنت.. كما أحب حريتي أيضا!.. ومع أنني أحب حريتي أكثر من حبي لك، إلا أنني لا أستطيع العيش دونك، كما أنك لا تستطيع العيش دوني!.. إنني أريد أن تكون لي، وأن تكون لي بروحك وجسدك!.. أتسمعني؟»

«فضحك زوبار وقال: «إني مصغ إليك، فإن الاصغاء إليك يشرح صدري.. أمض في حديثك!».. فقالت: «ليس لدي شئ آخر أود أن

أقوله سوى: افعل ما شئت، ولكن ثق أنك لي. فلا تضيع مزيدا من الوقت. إن قبلاتي وعناقي ينتظرانك.. سأقبلك في وجد، ولسوف تنسى – تحت سحر قبلاتي!– حياة المغامرات الماضية.. لن تتردد أغانيك المرحة التي يشغف بها الغجر، في المراعي، لأنك ستغني أرق الأغاني الناعمة لي وحدي.. لرادا!.. لا تضيع مزيدا من الوقت، فقد قلت لك ما عندي، وهو يعني أنك ستكون منذ الغد في خدمتي وحدي، بإخلاص وولاء، كما يخدم الشاب رفيقا يكبره سنا. وعليك أن تنحني عند قدمي غدا، وأمام المعسكر بأسره، فتقبل يدي اليمنى. وعندئذ فقط أكون زوجة لك!».. إذن، فهذا ما كانت الشيطانة تسعى وراءه!.. ومن الصحيح أن الشيوخ ذكروا أن هذه العادة كانت متبعة في قديم الزمان، بين أهل الجبل الأسود، ولكنها لم تقم مطلقا بين الغجر.فهل تتصور أيها الشاب شيئا أكثر مهانة من ذلك؟.. لا.. ولو اعتصرت مخك عاما بأكمله!

«ورددت البراري صيحة انبعثت من زوبار.. وكانت صيحة جريح مشرف على الموت. وارتجفت رادا، ولكنها لم تظهر مشاعرها، وإنما قالت: «أستودعك الله إلى الغد.. وغدا سوف تفعل ما قلته لك.. هل تسمعني يازوبار؟».. فزمجر زوبار وقال: «لقد سمعت وسأفعل ما أردت».. ومد ذراعيه لها، ولكنها تركته وانصرفت دون أن تتكبد أكثر من مجرد إلقاء نظرة عليه، فترنح وكأنه شجرة اقتلعتها الرياح، ثم سقط على الأرض وهو يشهق ويبكي ويضحك.. في وقت واحد!»

وصمت شودرا لحظات، ثم قال: «هذا ما فعلته به تلك اللعينة رادا. ولقد هرعت إليه محاولا أن أرده إلى رشده، ولكني أخفقت.. ترى لماذا يتعين على الناس أن يتألموا هكذا؟.. هل هناك من يجد متعة في سماع أنين شخص كسير القلب؟.. إن هذا لغز يستعصى – للأسف – على العقول!

«وعندما عدت إلى المعسكر، أبلغت الشيوخ بما حدث، فأخذنا نفكر في الأمر، ونقلبه على بساط البحث. ثم استقر رأينا – في النهاية – على أن ننتظر ما قد يحدث!.. وهاأنذا سأقص عليك ما حدث: فقد اجتمعنا في المساء التالي حول النار كالمعتاد، وانضم إلينا زوبار. وكان يبدو ذليلا وقد تهدم في ليلة واحدة، فغارت عيناه في محجريهما، وظلتا منكستين نحو الأرض، فلم يرفعهما، حتى عندما شرع يقول: «إليكم ما حدث أيها الرفاق. لقد فتشت قلبي في هذه الليلة فلم أجد فيه متسعا لحياة الحرية – التي كنت أهواها وأحياها دائما – إذ احتلت رادا كل ركن فيه.. وهاهي ذي رادا الجميلة تبتسم في كبرياء وكأنها ملكة.. إنها تحب الحرية أكثر مما تحبني، ولكني أحبها أكثر مما أحب الحرية، ولهذا قررت أن أنحني أمامها كما أمرتني أن أفعل، وسوف يرى الجميع كيف أستعبد جمالها لويكو زوبار الباسل، الذي كان – قبل أن يلقاها – يلعب بالنساء كما يلعب القط بالجرذان!.. ولهذا فستصبح زوجتي وتقبلني وتعانقني.. وعلي أن أعزف عن كل رغبة في الغناء إليكم، وأن لا أتحسر على ضياع حريتي.» أليس هذا ما ينبغي أن يكون يارادا؟».. ورفع عينيه نحوها في اكتئاب، فأحنت رأسها

دون أن تنبس بكلمة، وأشارت إلى الأرض الممتدة أمامها. ولم يكن في إمكاننا أن نتصور ما وقع، بل لقد شعرنا بحافز يدفعنا إلى الابتعاد عن المكان، حتى لا نرى لويكو زوبار وهو يلقي بنفسه عند قدمي فتاة.. ولو كانت هذه الفتاة هي رادا.. فقد كان في ذلك ما يدعو إلى الخزي.. بل كان أمرا شديد ألا يلام!

«وصاحت رادا بزوبار: «هيا!».. فضحك زوبار! ويا لها من ضحكة كان لها رنين الصلب!.. وقال «لا تكوني متسرعة إلى هذا الحد، ففي الوقت متسع.. متسع يكفي لأن يبعث الملل مني!».. وجه إلينا الحديث قائلا : «إذن،»».

فهذا هو الوضع يا رفاق؟.. ماذا في وسعي أن أفعله؟.. أن الشئ الوحيد الباقي هو أن أرى ما إذا كان قلب حبيبتي رادا صلبا إلى الدرجة التي تريدنا أن نتصوره عليها.. وسوف أجرب ذلك، فاغفروا لي يا رفاق!»

«وقبل أن يتسع لنا الوقت لنحدس ما كان يجول بخاطره، رأينا رادا ملقاة على الأرض، وقد غابت مدية زوبار المقوسة في صدرها حتى المقبض. فأصابنا الذهول، ولكن رادا انتزعت المدية وألقت بها جانبا، ودست خصلة من شعرها في الجرح، ثم ابتسمت وهي تقول في صوت عال وأضح النبرات: "الوداع يازوبار.. لقد كنت أعرف أنك ستفعل هذا!.." وكانت هذه آخر عبارة فاهت بها قبل أن تسلم الروح. فهل رأيت من أي

طراز كانت هذه الفتاة أيها الشاب؟.. كانت شيطانه إن كان بين الشياطين إناث.. فليحمنا الله!

«وقال زوبار بصوت دوى في أرجاء البراء: «الآن، ألقي بنفسي عند قدميك يا مليكتي المتغطرسة!».ثم ألقى بنفسه على الأرض، وضغط بشفتيه على قدمي رادا الميتة، ورقد دون حراك، فخلعنا ما على رؤوسنا ووقفنا صامتين!

«ماذا كان يمكن أن يقال في لحظة كهذه؟ لاشيء!.. وما لبث «نور» أن غمغم قائلا: «قيدوا هذا الشاب!».. ولكن لم يكن هناك من يستطيع أن يرفع يدا ليقيد بها لويكو زوبار.. لم يكن في وسع أي مخلوق أن يفعل ذلك. وكان «نور» يعرف هذا.. ولهذا فإنه لم يلبث أن تحول وانصرف عن المكان. وإذ ذاك انحنى دانيلو والتقط المدية التي انتزعتها رادا من صدرها وقذفت بها بعيدا عنها، ثم وقف برهة يتأملها — وكان نصلها الحاد، المقوس، ما يزال ملطخا بدم رادا، ثم تقدم نحو زوبار وأغمد المدية في ظهره، في مقابل القلب. وربما كان ذلك من حقه، فهو قبل كل شئ والد رادا، وهو أيضا الجندى دانيلو الذي حارب تحت أمرة كوسوت!

«وتحول لو يكو نحو دانيلو وقال: «أحسنت صنعا!»، ثم لحق برادا..

«ووقفنا ننظر إليهما، فهذه رادا ملقاة على الأرض، قابضة على خصلة من شعرها كانت تضغطها الى صدرها في مكان الجرح، وعيناها مفتوحتان تحملقان في السماء الزرقاء.. وعند قدميها، وقد لويكو زوبار

الباسل، وقد تهدل شعره المجعد وغطى وجهه فأخفاه عنا. ولبثنا واقفين فترة نهبا لأفكارنا.. وكان دانيلو يقف وكل جسمه يرتجف، وقد أخذ يتطلع إلى السماء، ولكنه لم ينبس ببنت شفه.. أما الشيخ «نور»– الذي عاد ثانية إلى المكان – فقد ألقى بنفسه على الأرض، وأخذت شهقاته تهز جسده هزا.. وكان له العذر كل العذر في البكاء!

«والخلاصة هي هذه:لا تدع شيئا يغريك على التحول عن السبيل الذي طرقته، بل سر فيه قدما، لا تحد عنه، وبهذا قد تتجنب أية نهاية سيئة!»

«هذه هي القصة كلها أيها الصقر الصغير!».

وتوقف مقار عن الكلام، ووضع غليونه في كيس التبغ، ثم ضم معطفه ليغطي صدره.. وكان المطر قد بدأ يهطل رذاذا، واشتدت الرياح، وأخذت الأمواج تتكسر وهي ترسل هديرا غاضبا. وعادت الجياد، واقتربت من النار التي أخذت تخمد أمامنا، ثم نظرت إلينا بأعين تسطع بالذكاء، ودارت حولنا محيطة بنا كالسوار.. وصاح مقار يرحب بها، ثم ربت على عنق جواده الأسود المفضل، وتحول يقول لي: «لقد حان وقت النوم!». وتدثر من قمة رأسه الى أخمص قدميه في معطفه القوقازي، ثم تمدد على الأرض واستكان.. وسكنت حركاته.ولكنني لم أجد رغبه في النوم، فجلست أحملق في الظلام المخيم على البرية الممتدة أمامي.. وأخذت صورة رادا تطوف أمام مخيلتي، وقد تجسمت لي في كبريائها،

وسموها، وفتنتها.. ورأيتها تضغط يدها القابضة على خصلة شعرها إلى صدرها، وقد ظهرت من خلال أصابعها الرقيقة، القاتمة اللون، قطرات من الدم أخذت تتساقط وتتحول عندما تصطدم بالأرض إلى نجوم ملتهبة. وتراءي لي شبح لويكو زوبار الباسل وهو يطوف وراءها، وخصلات شعره المجعد تغطى وجهه، وتتساقط من تحت هذا الشعر قطرات كبيرة من الدموع الباردة!

وازداد تساقط المطر، وغني البحر أغنية حزينة لهذين الغجرين الجميلين: لو يكو زوبار، ورادا ابنه الجندي الشيخ، دانيلو. وأخذ الشبحان يدوران ويدوران في رقص بديع، ودون ما صوت، في ظلام الليل البهيم. ولكن زوبار الجميل لم يتمكن – برغم محاولاته – من اللحاق برادا المتكبرة!

الفهرس